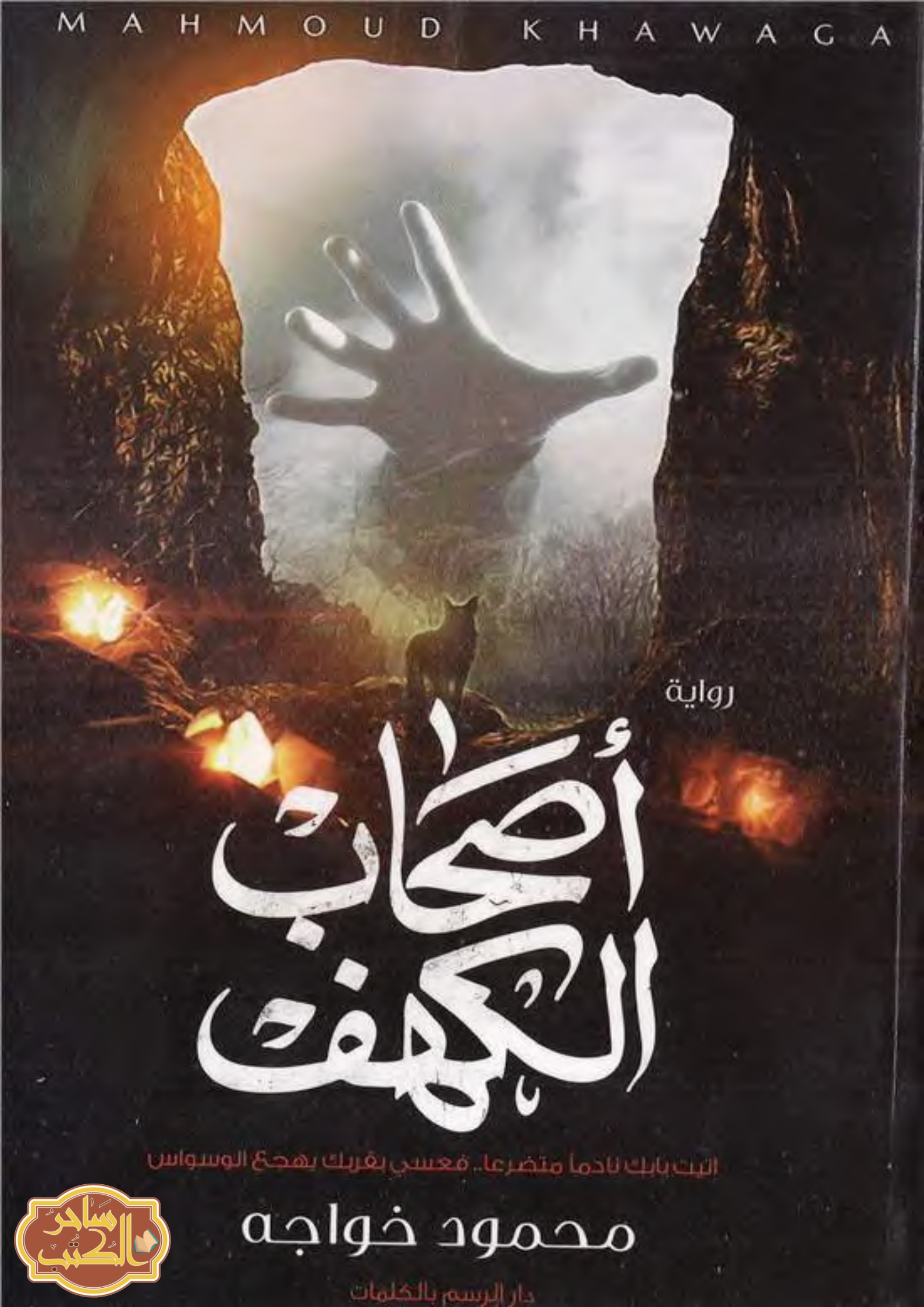

MAHMOUD KHAWAGA
رواية
أصحاب الكهف
أتيت بابك نادما متضرعا.. فعسى بقربك يهجع الوسواس
محمود خواجه
دار الرسم بالكلمات
ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

خواجة ، محمود
محمود خواجة رواية/أصحاب الكهف - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع / القاهرة: ٢٠١٨
٢٠٠ ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٤-٢٠٠-٦٧٤٠-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٦٧١٧

دار النشـــــر:	دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـاب:	أصحاب الكهف
الكاتـــــب:	محمود خواجة
تصحيح لغـوي:	عبير عبد الرحمن
تنسيق داخلـي:	ضياء فريد
خطوط الغلاف:	أحمد يوسف خواجة
تصميم الغلاف:	محمد مجاهد
إشراف عـــام:	محمد المصري

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

elrasm.blkalemaat
elrsmblklemat@yahoo.com
٠١٠٦١٤١٩٥٥٥

أصحاب الكهف

رواية

محمود خواجة

إهداء..

لتلك اللحظات التي لم تعد الحياة كما كانت قبلها،
لتلك الأيام التي استطاعت تغييرنا للأبد،
لما رأيناه من مآسي، من نَدم، من أحزان وابتلاء،
أُهدي روايتي.

قُبيل البداية.. أُحب أن أخبركم أن كُل ما كُتب هو قصة حقيقية حَدثت معي بشكل شخصي وأقسم أنني لم أتلاعب بأي حرف.

20 نوفمبر 2017

• **قبل اليوم الأول بساعات:**

- "لا تَنظر خلفك، لا تَنظر خلفك."

قيلت هذه الجُملة برُعب حقيقي، فاللحظات التي تُهرول بها في الطرقات وتَجد عشرات الأشخاص يُلاحقونك حتى يغتالوك أمام أعين الأطفال والشيوخ.. قليلة حقًا، رُبما لا تحدث إلا مَرة في العُمر وقد لا تَحدث أبدًا.

كان يَركض بشدة وهو لا يعلم إلى أين ذاهب، كُل ما يحاول فعله هو الابتعاد عن أهل شارعه حتى لا يقتلوه، كان خائفًا، فهو لم يَقصد أبدًا أن يَقتل اثني عشر رجلًا من رجال الشارع. كان خطأ فادحًا أن يَرتكب تلك الجريمة إلا أنه أقسم أنه لم يفعلها عن قصد.

ما الذي فعله (صلاح) ليُجني تلك الجناية؟ ذلك الخطأ الذي غير حياته بأكملها؟ كان يُردد هذا السؤال في عقله لكنه على علم بالإجابة؛ لخبرته المُستنيرة في صناعته لمُخدر بدائي الصُنع، فطبيعته

كصيدليْ الشارع الوحيد أن يكون الطلب مُتزايد عليه، إلا أن دومًا "البحر يُحب الزيادة"، فصناعته لذلك المُخدر جعلت منه صيدلي معروف للشارع عامةً، وصانع مُخدرات لرجال الشارع المُدمنين خاصةً.

بعد أن جاء إلى محل عمله وَجد العديد من الأهالي يقتربون منه ويُكسرون زجاج المكان ويودون قتله. الخبر ذاع صيته في دقائق معدودة، شاب مات تلاه شاب آخر حتى وَصل العدد إلى اثني عشر شابًا في مُقتبل العُمر.. والسبب!! خَطأ بسيط في تركيبة المُخدر، من تركيبة تُنسي الهموم مؤقتًا، إلى سُم يُنهي الحياة للأبد.

ـ يا غبي، أخبرتك ألا تَنظر خلفك.

كان شابًا من أهل الشارع، أخبره بأنهم قادمون لأجله وسيقتلوه، رَكضَ (صلاح عابر أبو البِر) كما لم يَركض من قبل، فالأدرينالين كفيل بجعلك تَطير من شدة الخوف، بمُجرد وقوفك ستُقتل ويَهل الشارع بأكمله للحصول على جثتك.

"أنت لن تموت اليوم"، قالها لذاته الواهنة حتى يواصل الهرب، حتى لا يَتعب من الرَكض السريع، تتزايد أصوات الصراخ والصياح النابعة من ألسنة النساء، ورجال الشارع يُخبروه بأن يتوقف حتى لا يُحاصروه ويُقطعوا جُثته ثم يُعلقونها على باب صيدليته فيصبح عِبرة لمن لا يعتبر، في قرارة نفسه كان يَضحك بشدة مما يقال، فهو على علم تام بأنه لن يموت اليوم.

انبعث ضوء الأمل في عقله، انفرجت أساريره بمُجرد أن رأى

الشارع العمومي يُلوح في الأفق، سيهرب ولن يعود مُجددًا لذلك الشارع الملعون، كان يعلم بأنه أخطأ خطأ جسيمًا، ويُدرك بأنه سيُعاقب على ذلك عقابًا لم يتخيله من قبل، لكنه لا يود الموت على أيديهم بهذه الطريقة السخيفة، فحياته لن تنتهي بتلك السُرعة. تدارکه شعورًا واحدًا فقط وهو "الخوف".

لم يكن خائفًا من أن يقتلوه، لم يَكن خائفًا من أنه لن يستطيع الهرب، كان خائفًا فقط من أن يرى أحد المُسدس المُختبئ خلف بنطاله، إذا رأوه سيُخرج أحدهم مُسدسًا بالتأكيد ويَضرب الرصاص عليه، وعلى الرغم من أنهم يودون قتله إلا أنهم يودون تعذيبه وإهانته أمام أهل الشارع بأكمله.

وبعد تفكيره العميق في ذلك، وبعد اقترابه من الشارع ورؤيته للعربات تنطلق بسُرعة شديدة، انهار الأمل وتحطم بعد رؤيته لبعض الرجال يقتربون منه ويُحاوطونه، توقف عن الرَكض ورفع يديه مُعلنًا استسلامه.

ماذا؟ هل انتهت بتلك السُرعة؟ هل سيتم قتله الآن؟! بعد أن اطمأن أهل شارعه من أنه استسلم وأعلن تهاونه معهم، اقتربوا منه وهم يحملون العصيان والسكاكين التي سيتلذذون بتعذيبه بها، لكن حدث ما لم يكن في حسبانهم.

أخرج (صلاح) المُسدس من خلف بنطاله، قَبض على واحدٍ منهم ووضع فوهة المُسدس في قبالة رأسه، في تلك اللحظة تراجع كِبار الشارع وهم خائفون على هذا الشاب الذي قد يقتله (صلاح).

كان يعلم بأنه لن يقتله، استخدمه فقط لإرهابهم وإبعادهم عما قد يفعلوه به، قال لهم بنبرة مُترددة والعرق يتصبب من وجهه:

- لن أؤذيه، اتركوني أذهب وأعدكم بأنكم لن تروا وجهي مرة أخرى.

لاحظ أن بعض الرجال يُحاولون القبض عليه من الخلف، إلا أنه نَظر لهم وعَمر المُسدس بسُرعة شديدة:

- إذا اقتربتم أكثر من ذلك، أعدكم بأنكم لن تروني بسبب انفجار رأسه ودماءه ستُغطيني.

ارتعب الشاب الذي كان بين يدي (صلاح)، فتراجع الأهالي أكثر وهم يَنظرون بعين الحذر إلى ما قد يفعله بواحد آخر من شباب شارعهم، تَحدث واحد منهم وقد بدا أنه أكبرهم سنًا:

- أتحسب أننا سنتركك تَرحل بعد قَتلك للعديد من شبابنا؟!

كان يعلم أنه مُجرد سبب في حدوث ذلك، لم يَرد عليهم وأطلق رصاصة في الهواء حتى يُحذرهم من خطواته المُتهورة، ابتسم لهم ببرود حتى يُظهر أنه غير مُتوتر:

- إن لم تتركوني أذهب سأقتله، كما قُلتم.. فشخص قتل العديد من شبابكم قد يستطيع قتل شاب آخر.

تَصفح السُخط وجوه الأهالي، الغضب ظهر على أعينهم حتى أن بعضهم بكى وصاح لأنهم لم يستطيعوا القصاص منه، فتحدث ذات الشخص مرة أخرى:

ـ سنتركك تذهب، لكن أقسم لك باسم الأهالي أجمعين، إن رآك أحد منا في مدينة أخرى، في بلد آخر أو حتى كوكب آخر، فلن نتركك تذهب وسنتقتلك بأسوأ طريقة مُمكنة.

أومأ (صلاح) برأسه، تراجع خطوات بسيطة إلى الخلف حتى يَصل إلى الشارع العمومي، بعد وصوله إلى الشارع ورؤيته للسيارات الأجرة، نَظر للشاب:

ـ أنا أسف، لم يكن هُناك وسيلة أخرى.. وتَركه يذهب.

رَكض الشاب لأهل شارعه مرة أخرى وهو يبكي من شدة الخوف، أوقف (صلاح) سيارة بسرعة مُبهرة، وآخر ما رآه كانت أوجه الأهالي والغضب يَنهش ملامحهم.

استقل السيارة فسمع صوت هاتفه يَرن، ردّ ثم وضع الهاتف على أذنه:

ـ ألو، نعم أنا (صلاح أبو البَر).

ـ لقد كُنتِ رائعة حقًا، جسدك هذا لا يُقدر بمال.

ابتسمت بثقة وفخرٍ لا مثيل لهما، كأنها تعلم أن جسدها هذا هو النوع الذي سيعشقه، وكأنها تعلم أيضًا أنها ليست كباقِ العاملات في هذا المجال.

كانت تجلس أمام مُديرها على مكتبه، كانت على علم بأن هذه الجلسة معه ستكون الأخيرة، مر عشرون عامًا من عمرها في هذا العمل، تُبدع فيه وترى كل ما هو جديد حتى تُنفذه، وأيضًا لكي تظل الأولى بين زملائها.

كانت (لارا) على يقين تام بأن مُديرها لن يتركها تذهب دون مقابل، فهي تجلس أمامه الآن باحترام وحشمة لا تليق بها مما جعل مُديرها في العمل يتعجب، لقد اعتاد أن يراها بأضيق الملابس وأقصرها، لماذا تغيرت؟

- أخبريني، ما تقييمك لي ليلة أمس؟ هل كُنت طبقًا للتوقعات؟

ابتسمت (لارا) بهدوء مُريب ولم ترد، ثم بعد هنيهة ردّت بآخر رد ودّ أن يسمعه مُديرها:

- هذا هو اللقاء الأخير بيني وبينك. تشرفت أنني كنت معك طوال الثلاثة أعوام الماضية، لكني لن أستطيع، شُكرًا لك.

تحولت ابتسامة مُديرها إلى نظرة مليئة بالغضب، نظرة يكاد يقفز منها التعصب والكراهية، لكنها تحولت مرة أخرى إلى هدوء وضحك هستيري:

- لابُد وأنكِ تمزحين.

بقليل من الخوف تهز (لارا) رأسها أي "لا"، فنظر مُديرها إليها بهدوء وحاول أن يُهدئ من روعه، لكن بلا فائدة:

- هل لي معرفة السبب؟
- في الحقيقة لا.. لأنه لا يوجد سبب أصلًا، لقد استيقظت اليوم لأجد نفسي في حاجة لهدوء، في حاجة لأرى أوجه غير تلك الأوجه التي اعتدت النظر إليها، وأود بدء حياة جديدة نظيفة. وأتمنى لو سمحت لي بهذا، وأنا لن أنسى أبدًا ما كان بيننا من عِشرة.

كانت نظراته - بالنسبة لها - مُريبة، فهي لا تفهم ما الذي يود فعله لكنها تعلم أن هذا الأمر لن يسير على ما يرام، نهض من موضعه فجأة وابتسم لها.

- تشرفت بالعمل معكِ يا (لارا)، وأود أن أراكِ مرة أخرى في القريب العاجل.

لم تُصدق، بل نظرت له بأكثر من انفعال في الثانية الواحدة، سعادة لأنه سمح لها بأن تسير، خوف من غَدر هذا الرجل، توجس مما قد يفعله بها، نهضت هي الأخرى من مكانها وابتسمت له ثم مدت يدها لتصافحه.

- أشكرك.

رفع سماعة الهاتف وأخبر ثلاثة من رجاله أن يحضروا.

- أود أن أجعل رجالي يُسلمون عليكِ، لقد وعدتهم بذلك.

تنظر له بريبة وهي لا تفهم مقصده، فتجد ثلاثة رجال يقتحمون الغرفة ويقتربون منها بسرعة مُذهلة، ترفع يدها مُستسلمة خوفًا مما قد يفعلوه بها.

نَظرت لمُديرها بحسرة وخوف، هُنا فقط فهمت مقصده وأنه لن يتركها تذهب بهذه البساطة، دنا منها ثم تحدث بصوت مُنخفض:

- نسيت أن أخبرك، أنكِ لا تعملين ببنك مصر، أو سوبر ماركت، أو حتى عيادة لطبيب، أنتِ هنا في عالمي، لن أتركك بهذه السهولة لأنكِ رغبتِ في ذلك، إما أن تعتذري لي في الحال وحينها سوف أفكر في إمكانية إعادتك.. أو...

يبتسم لها بهدوء، تظهر أسنانه غير المنتظمة وغير النظيفة نظرًا لتناول السجائر والحشيش وكُل أنواع الدُخان كما يقولون، فيستطرد:

- أن تعتذري لي أيضًا، لا يوجد خيار ثالث.

تنظر (لارا) إلى الأرض، مليون شعور يجتاح عقلها، لِمَ قامت بكل هذا من الأساس؟ لِمَ ذهبت حتى تستأذن منه؟ كان في يدها أن تهرب وهو لن يعرف عنها شيء، لكنها في نفس اللحظة توصلت إلى إجابة.

الخوف.. الخوف هو ما فعل بها كُل هذا، الخوف من الفقر، من الجوع، من الاحتياج.. هو ما جاء بها إلى هذا المكان في المقام الاول.

يُشير المُدير إلى رجاله أن يخرجوا، ثم نظر بهدوء إلى (لارا) وعاد إلى مكتبه، أخبرها أنها بإمكانها النهوض والجلوس مرة أخرى أمامه على المكتب.

ـ أنا لا أود أن أفعل بكِ كما فعلت بـ(لوكا)، لا تنسِ أبدًا ما حدث لها.

جلست أمامه لكنها لم تنظر له أبدًا، مُطرقة رأسها إلى الأرض تشعر وكأن قلبها وحياتها قد كانا مُخطئَين، كانت تعلم أنها إذا خرجت من هذا المكان سوف يقتلها، وإذا ظلت فيه سوف يقتلها، وإذا حتى نهضت وقبلّت يده وترجته حتى يغفر لها - كما فعلت (لوكا) من قبل - سوف يقتلها أيضًا، وكان هذا جزاء صديقتها (لوكا)، اختفت تمامًا مُنذ عامين ولا أحد يعلم موضعها.

كَثرت الأقاويل أنها ماتت إثر حادث، أو قتلها المُدير الذي لا يعرف أحد اسمه، أو سافرت إلى اليونان.

كانت الخطة الثانية هي أن تُبادر بفعل هذا، وألا تسمح له بقتلها، كان المُدير يتحدث في أشياء شتى لم تُركز فيها (لارا) أبدًا، نظرت له فجأة ونظرت على المكتب فوجدت مطفأة للسجاير لكنها كبيرة نسبيًا.

نظرًا لكون (لارا) عاهرة مُحترفة رغم سنها الصغير، إلا أنها استطاعت إثبات نفسها في هذا المجال بجدارة، كانت تعلم متى تتحرك لإغراء المُتفرج، مَتى ترفع قدمها للأعلى أو تنظر في عينيه كي تثيره أكثر، كانت حركتها خفيفة تستطيع القيام بأي شيء في سرعة مُبهرة.

الخطة كانت سريعة للغاية وشرعت (لارا) في تنفيذها، مَسكت المطفأة ونهضت مسرعة والمُدير لا يفهم ما يحدث ثم قامت بضربه على رأسه بها ضربة قوية جعلت الدماء تسيل من رأسه بسرعة.

نظر لها قبل أن يقع على الأرض، ثم اقتربت منه وضربته أكثر من ضربة حتى سمعت صوت الرأس يتهشم، الدماء ملأت الغرفة.. ويديها أيضًا.

كانت تعلم أن أمامها دقيقة واحدة فقط للهرب، مسحت يديها في ملابسه من الأعلى وتأكدت من أنه قد مات. نَظرت إلى الأعلى فوجدت كاميرات المراقبة ترقبها لحظة بلحظة وهي الشاهد الوحيد على ما تفعله.

في خضم هذه الأحداث، سَمعت صوت هاتفها يرن فانتفضت متوترة ظنًا منها أن أحدًا قد دخل عليها. مَسحت الدماء جيدًا، نظرت إلى ساعتها فوجدت أن باقي أقل من عشرين ثانية.

كانت جُثة المُدير على الأرض هائمة على وجهها المُهشم، خَرجت من المَكتب واضعة يديها الاثنتين في جيبها حتى لا يراها أحد، كانت هُناك قطرات دماء على ملابسها لكنها تحتاج إلى أحد يُدقق النظر حتى يجدها.

في الوقت ذاته كان حارس المُدير قد دخل المكتب ليجد جُثته على الأرض، ركض ناحيته حتى يطمئن إذا كان هُناك أي نفس يخرج منه.. لكنه قد مات إثر تلك الضربات القاتلة على رأسه.

خَرجت (لارا) من المبنى بأكمله لتجد خمسة أشخاص يركضون ناحيتها، رَكضت (لارا) بسُرعة لم تشهدها من قبل، كانت تسبقهم بأمتار كثيرة وليس من السهل الوصول لها، نظرت فوجدت سيارة أجرة تقف على جانب الشارع، دَخلت السيارة بسرعة وقالت للسائق:

ـ اذهب، أرجوك بسرعة.

توجس السائق، الحُراس على مقربة منها ويجب أن تتصرف بسرعة، أخرجت من جيبها أموال لا حصر لها وأعطتها له فانطلق مُسرعًا.

توقف الحُراس بمجرد أن تحركت السيارة، وبدأ القلق والخوف يظهر عليهم جميعًا لمقتل مُديرهم. رَفع حارس منهم هاتفه الخاص به واتصل بشخص ما:

ـ مُديرنا قد قُتل، (لارا) قتلته.

في نفس الوقت كانت (لارا) في السيارة تلتقط أنفاسها إثر الركض والرعب الذي حدث بقتلها لمديرها، وجدت هاتفها يرن مرة أخرى فأخرجته من جيبها ووضعته على أذنها:

ـ ألو، نعم أنا (سماح) ولكنني لا أحب هذا الاسم، أنا (لارا).

- أنا لم أفعلها، صدقني.

هُناك بعض الأخطاء خُلقت لنُحاسب عليها حتى ولو لم نرتكبها، عدة ليالي مرت عليه وهو يشعر بالوحدة، مرت عليه وهو يشعر بعدم الرضا والرغبة في أي شيء وُجِد في الأرض، كأن الحياة لا توده سعيدًا، كأن الأرض ستشعر بالحزن إذا وجدت ابتسامة على وجهه.

قُبيل هذه اللحظة بحوالي ساعتين، كان (علي) يقف في منزله مُرتعد اليدين، مُرتعب الملامح. وعينيه قد امتلأت دموعًا. فليس من اليسير أن ترى زوجتك مقتولة والدماء تحيطها من جميع الجهات وقد شكلت بركة حولها.

أنت لا ترى كُل يوم حادثة قتل، وبالأدق لا ترى كُل يوم أحب الناس إليك قد قُتِل وأنت لا يوجد بيدك ما تفعله.

اقترب (علي) من زوجته ووضع يده على وجهها غير مُصدقًا ما يراه، لقد ماتت زوجته، يديها قد أصبحتا باردتين، ذهبت الروح إلى ملكوت آخر غير ملكوته، انتهت حياتها ولن يراها مرة أخرى.

- أنا آسف، أنا آسف.

قالها بصوت قُتِل هو الآخر نظرًا لما رآه، أهو آسف على تركها وحيدة؟ أم آسف على خوفه المبالغ فيه عليها؟ الدموع قد شكلت مسارًا على وجهه لم يشهده من قبل، كأنه لم يعرف البكاء إلا في تلك اللحظة.

بعد مرور ساعتين من الحادثة، جلس (علي) أمام أخيه الأكبر يبكي أمامه، والجثة الخاصة بزوجته لازالت على مقربة منهما، كلما نظر (علي) لها بكى غير مُصدقًا ما يرآه.

- أنت المتهم الوحيد في هذا الأمر من وجهة نظر الكُل، حتى أهلها لن يصدقوا أنك لم تفعل هذا.

قالها (سامح) الأخ الأكبر لـ(علي) بهدوء تام، نظر (علي) لأخيه بحسرة وحزن:

- أعلم ذلك، لكني لم أفعلها صدقني.

نظر (سامح) إلى أخيه ليحاول أن يطمئنه لكن بلا جدوى، الخوف هو ما يسيطر عليه، الحزن يلتهم كيانه الكئيب. وفي محاولة بائسة منه لكي يُطمئن ذاته:

- لا يوجد ما يُثبت أنني فعلتها.

- ولا يوجد ما يُثبت أنك لم تفعلها، موقفك حرج صدقني، خاصة بعد المشاجرة التي كانت بينكما أمس.

في الأمس، كان الحوار بين (علي) وزوجته مشتعلًا ولا أحد يُدري السبب، لكن الأمور وصلت إلى أن قام (علي) بصفع زوجته بعصبية شديدة مما أدى إلى خروج زوجته منفعلة إلى بيت أهلها، كان والد زوجته لا يُحبه أبدًا مما جعل الأمور تتفاقم في ليلة وضحاها. وقامت زوجته بالذهاب إلى محامي لتعرف إجراءات الخُلع.

رغم كُل هذا، كان الحُب يطغي على ما يحدث بينهما.. من ناحيته هو على الأقل، كان يحبها بصدق، لكن الأمور بداخله لم تكن على ما يرام.

ينظر (علي) إلى جثتها، يقترب منها مرة أخرى بعد أن حاول أخيه تهدأته، يضع يده على رأسها ويقبلها كأنه يود أن يقول لها " عودي مرة أخرى لو لثانية حتى أستطيع أن أعتذر لكِ عما حدث ".

يمسك (سامح) يد (علي) ويجذبه ناحيته لكنه يأبى أن ينهض مرة أخرى، ينظر سامح إلى أخيه بتحدٍ رغم ما يمر به:

- علي، انظر إلي وأخبرني أنك لم تفعلها.

ينظر (علي) بلا تردد ويُخبره:

- لم أفعلها يا سامح. اتركني وشأني.

- لا تنس أن أمها ستأتي بعد عشر دقائق من الآن، يجب على الأقل أن نقوم ببلاغ حتى نُثبت أنك لم....

يصمت (سامح) لثوانٍ، هو حتى غير مُتأكد أن أخيه لم يفعلها، لكن هُناك إحساس داخلي يُخبره أنه لم يفعلها، حتى وإن لم يفعلها، الشُرطة لن تشعر بذلك الإحساس الداخلي، شهادة أهلها وأصدقائها وكل من يعرفها سيخبروا الشرطة أن (علي) كان يتصرف معها بطرق همجية، ويضربها بين الفنية والأخرى حتى أنه طردها في الشارع في مُنتصف الليل وحدها، دون حتى أموالًا تكفيها للذهاب إلى منزل أهلها.

لكنه يعلم، أخيه لم يفعلها، مهما وَصل به الأمر لن يقوم بمثل هذا، لذا فكر (سامح) في حل بديل:

ـ علي، هُناك حل آخر.

ينظر وقد ظهرت بارقة أمل في عينيه:

ـ أستطيع أن أجعلك تسافر إلى بلد أوروبية و....

قطعه صوت الهاتف الخاص بـ(علي)، نظر إلى هاتفه فوجد رقمًا غير مُسجل على قائمة أرقامه، نظر إلى (سامح) ثم رد على الهاتف:

ـ ألو، نعم أنا (علي).

***

ـ لقد أُغلقت الشِركة، ورُهن منزلك، لقد انتهى كُل شيء.

لم يكن من السهل إخبارها بأن حياتها المليئة بالترف لن تعد كما كانت، أو أنها لن تستطيع شراء ما تحتاجه وما لا تحتاجه لتُضفي على نفسها وجهة اجتماعية خُصِصت لها مُنذ بداية سلسال عائلتها.

"رشا مهدي"، تُعد من أصحاب النفوذ - في حقيقة الأمر كانت من أصحاب النفوذ -، تمتلك شركة لصناعة ملابس للنساء، تلك الشركة التي ورثتها عن جدودها وأبيها الذي وافته المنية مُنذ أعوام قليلة.

لم تَكن (رشا) قد تشربت أسرار المهنة بشكلٍ كاف، حتى أنها لم تكن تدري ما الذي يجب أن تفعله بعد وفاة أبيها في إدارة الشركة، مُنذ صغرها وهي تهتم بالمظهر الخارجي.. الفساتين المُبهجة المليئة بتفاصيل تُبهج الناظرين، الأموال الطائلة والتي لا حصر لها، حتى أن أصدقاءها ابتعدوا عنها لأنها كانت تشعرهم بأنهم أقل منها وأنهم لا يستحقون أن يكونوا أصدقاء لها.

عانت (رشا) مُنذ فترة بمرض السكري والذي أدى لوفاة والدها في مرحلة مُتأخرة من العمر ومن المرض أيضًا، وَرِثت المرض عن أبيها، وورث أبوها المرض عن جدها وهكذا، فالعائلة كُلها مصابة بذلك المرض مُنذ مطلعها ونشأتها.

بعد أن فَهمت أسرار العمل، وعَرفت كيف تُدير إلى حدٍ ما بمساعدة أصدقاء أبيها، إلا أنها لم تكن حَذرة في التعامل مع العُمال، وحتى في محاولة تدبير أمورها الشخصية وأموالها التي تُرفه بها عن نفسها؛ فلم تستطع أن توازن بين حياتها وأموالها الشخصية، وعملها وأموال العمل.

مما جعلها وجعل الشركة عُرضة للإفلاس، وكُل من بالعمل حذرها من ذلك، الشركة أصبحت في مرحلة انهيار كامل، لم تستطع الشركة مواكبة التطورات السريعة في الأسواق والأذواق والموضة، وأصبحت كما هي على سابق عهدها مما أدى إلى غض العامة الأنظار عنها، وبالتالي أصبح هُناك تناقص ملحوظ في الإيرادات الخاصة بالشركة مما أدي إلى تذمر العُمال لعدم حصولهم على مُرتبات عادلة،

ثم حدث ما حدث وترك العُمال الشركة وَسط عصيان منهم على تنفيذ الأوامر بالعمل.

انتهى كُل شيء بمُجرد أن بدأت (رشا) في الاقتراض من البنوك وعدم مقدرتها على السداد، حتى أنها تقف بخوف شديد، فمن الممكن - بل من المؤكد - أن أعداءها لن يتركوها دون أن يزجوا بها داخل السجن، لأنها تُدين بمبالغ طائلة لهم ولكل من عَمل والدها معه في السابق.

- يجب عليكِ الاختباء، أنتِ في خطر.

خَرجت تلك الكلمات بنبرة هادئة من صديق والدها، الوحيد الذي لم يتركها في تلك المحنة، حاول أن يجعلها تَفيق من غفلتها وأن ما تفعله قد يهدد مستقبلها لكنها لم تسمع، ها نحن ذا وقد هُدِد مستقبلها فعلًا وأوشك على الدمار.

- أنا آسفة، أنا السبب في كُل ما حدث.

- لقد أخبرتك، لكنني لن أعاتبك.. لقد انتهى كُل شيء حقًا، يجب عليكِ الاختفاء وألا تعودي الآن أبدًا حتى لا يتم القبض عليكِ، انتظر الكثيرون تلك اللحظة حتى ينتهوا من سيرة عائلتك إلى الأبد، وها هم يشاهدون تلك اللحظة بانتصار.

نظرت إلى الأرض، لا تود النظر في عينيه حتى لا تشعر بالذنب أكثر مما تشعر الآن، لَمعت عيناها في انتفاضة غريبة لها، هي لم تبكِ أبدًا بسبب فشل في عملها أو حياتها حتى، كانت مرة واحدة يوم وفاة

والدها، لذا حاولت التماسك، البُكاء للضعفاء وهي ليست ضعيفة.

مَسحت دموعها قبل أن تظهر، ثم نظرت له وقالت:

- أنا شاكرة لك، يُمكن أن تذهب الآن، وإذا سألك أحد عَني أخبرهم أنني لن أظهر مرة أخرى.

كان تأثرها بالشخصيات التاريخية واضحًا على عكس الكثيرين، فـ(رشا) كانت ترى في (هتلر) مثلًا أعلى. ليس في قتله لليهود، أو حتى في أفكاره السامية - من وجهة نظرها -، لكنه كان مثلًا أعلى في نهايته، كانت نهايته عبرة لها.

بالرغم من كل ما فعله إلا أنه لم يخش الموت، في الوقت الذي عرف الحُلفاء بمكانه وانتهت الحرب العالمية الثانية بخسارته، قرر الانتحار ببسالة هو وحبيبته التي أحبها قبل موته بأقل من أربع وعشرين ساعة، انتحرا سويًا ولم يجعل أحدًا يُمارس عليه أي نوع من أنواع التعذيب، سواء الجسدي أو النفسي.

لذا رأت أنها يجب أن تفعل مثلما فعل، وأن تقوم بالانتحار حتى لا تسقط فريسة لأعدائها، يقتلونها بالطريقة التي يشاءونها.

خَرج الرجل من الغرفة الخاصة بها، وظلت وحيدة تُفكر في أسرع طريقة للانتحار، طريقة لا تجعلها تشعر بأي ألم، هل الحُبوب؟ لكنها تعلم أنها سوف تتألم، الرصاص؟ لن تستطيع ضرب الرصاص على نفسها، إلقاء نفسها من مكانٍ عال!

في الوقت الذي كانت تفكر فيه، وَجدت هاتفها يرن، نظرت إلى الهاتف فوجدت رَقمًا غير مُسجل على قائمتها الخاصة، كانت تخشى أن يكون شخصٌ من أعدائها يتصل حتى يستفزها، لكن ماذا سيحدث إذًا؟! هل هذا سيؤثر في خطتها للانتحار! ردّت (رشا) على الرقم:

- مساء الخير، أأنتِ (رشا)؟!

- نعم أنا، من حضرتك؟!

كان صوت أنثوي مُتهدج وخائف، صوت تعرفه جيدًا لكن لا تعرف من هو صاحبه:

- أنا أعلم ما تمرين به، أعلم أنكِ تفكرين في الانتحار الآن بإلقاء نفسك من مكانٍ عال، خطة ذكية لكنها غير مُجدية.

نهضت (رشا) من موضعها، ازدادت ضربات قلبها بمعدل زيادة عن الطبيعي وازدردت ريقًا جافًا ثم ردّت:

- من أنتِ؟!

- أنا لا أحد، هُناك حل واحد فقط للخروج من هذا المكان وهذا المأزق، سأرسل لكِ إحداثيات مكان كوني به بعد ربع ساعة من الآن، إما هذا.. أو أنكِ لن تكوني في مأمنٍ أبدًا.

لم تستطع الرد، كأن هُناك من قبض لسانها، جل ما تفكر فيه من هذه المرأة؟!

- بالمناسبة، لن تقومي بالإنتحار؛ أنتِ أجبن من هذا.

ثم أُغلق الخط.

• 21 نوفمبر 2017

انقضى اليوم بما فيه من متاعب وتخطت عقارب الساعة حاجزها اليومي، بدأت السماء تُرسل غضبها عليهم جميعًا احتجاجًا على ما فعلوه، وكأنهم أُناسًا هَربوا من رحمة الغفار.

أصدرت السماء أصواتًا عالية مُزعجة أيقظت جفونهم الغافلة وعقولهم الشاردة، في ليلةٍ لا تنسى لهم جميعًا، ليلة لم تمر كباقِ الليالي، نقطة فاصلة في حياتهم والتي لن تعد مرة أخرى كما كانت.

في مكانٍ ما في صحراء جرداء اجتمع الأربعة أشخاص، لا يعرفون بعضهم بعضًا، لا يُحاول أحدهم أن يُلقي نظرة على الآخر.

جاءهم هاتف بعد وقوع الحادث الأسوأ في تاريخهم، يُنبئهم أنه بإمكانه أن يُخبئهم في مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه مهما كانت قوته، ولو اجتمعت حكومات العالم للوصول إلى هذا المكان فلن يستطيعوا أبدًا.

لذا كان المكان غير موجود تقريبًا، حينما أعطى لهم الإحداثيات ظنوا أن هذا المكان سيكون قصرًا لا مثيل له، له بوابات ضخمة يستطيع المرء الدخول عبرها ليجد منابع الأنهار وحدائق الفواكه بمختلف أنواعها.

لكن في الحقيقة، المكان لم يكن موجودًا، جميعهم وقفوا في انتظار أي شخص لينجدهم من ورطتهم، قام (صلاح) الصيدلي وتحدث بملء فمه.

- هل جاءكم اتصال يُخبركم أن هذا المكان سيـ....

- نعم.

قاطعه (علي) بنظرة شاردة تكاد لا تُلقي بالًا لأي أمر في الحياة، فإذا (رشا) صاحبة الأعمال - سابقًا - تنظر إلى (لارا) بهدوء وتحاول أن تُجذب أطراف الحديث معها لكن (لارا) كانت تخشى أن يكون هذا كُله مُجرد مُحاولة لقتلها بعد أن قتلت مُديرها.

لا يعلم أحد ما الذي جعلهم يرغبون في المجيء، لكنهم أجمعوا على مقولة "ما أسوأ شيء يمكن حدوثه؟، القتل؟ التعذيب؟ فهي النتيجة المحتومة لحياتهم إذا استمروا في مدينتهم".

في ذلك الوقت وبعد أن ساد البؤس والحزن على وجوههم، جاء شخص من بعيد، يرتدي حُلة سوداء، كان وسيمًا بحق، كأنه ملاكًا قد سقط من السماء ليتعامل معهم بهيئة بشرية، لكن الخوف كان ما يسود وجهه، والألم أيضًا.

- هل جاءكم اتصال من رَجل يُخبركم أن هذه الإحداثيات بها مكان يستطيع تخبئتكم للأبد؟

انتفضت (رشا) و (لارا) في آنٍ واحد، ثم تحدثت لارا بذعر:

- لا، لقد كان الاتصال من امرأة.

- نعم، لقد اتصلت بي امرأة ليس رجل.

قالتها (رشا)، لكن الباقي لم يتعجب، بابتسامة على وجه الغريب، قال بهدوء:

- إذًا ما المطلوب فعله؟!

لم يَرد أحد، في الحقيقة لم يعرف أحد ما المطلوب فعله بعد، من هؤلاء الذين اتصلوا بهم، وماذا يريدون؟

- أنا اسمي (حاتم الشربيني)، أعمل مُحاسبًا في بنك واليوم تم طردي.

لا يهتم أحد بأمر (حاتم)، ينظرون لأنفسهم، ضوء خفيف يُسلط عليهم نظرًا لكونهم في الصحراء فلا يوجد أضواء كافيه للتعرف على الأوجه، فالملامح كلها تكاد ألا تظهر، لكن هذا الضوء الطفيف جعلهم يرون فقط أجساد بعضهم.

سَمعوا صوت نباح لكلبٍ ما، تعجبت (رشا) فكيف لكلب أن ينجو في ظل هذه الظروف! نباح الكلب يقترب منهم بسرعة. بدأت (لارا) في الخوف بشدة وبدأ الجميع في الابتعاد عن هذا الموضع بخطوات خفيفة وخائفة، إلا أن (رشا) ثبتت موضعها لأنها لا تخاف الكلاب.

جاء الكلب بسرعة شديدة لكنه توقف فجأة بمجرد أن وَصل أمامها، نظر لها نظرات لم تفهم معناها لكن ذيله أخذ في التحرك بشدة بمجرد أن رآها، ابتسمت (رشا) لأنها فهمت أنه يود اللعب.. أو أن الكلب يُحبها، وضعت يدها على رأسه من الأعلى فأغمض الكلب عينيه في استسلام.

وقف الكلب على قدميه وكأنه يود أن يعانقها، فقالت (رشا):

ـ أهلاً بك يا صديقي.

كان يظهر عليه أنه بصحة جيدة ونظيف أيضًا، في طبيعة هذا الحال فالكلب يجب أن يكون ممتلئًا بالحشرات نظرًا لعيشه في بيئة غير نظيفة إطلاقًا.

وقف الكلب أمامها في انصياع شديد، كانت تشعر بأن هذا الكلب لطيفًا بشكل مبالغ فيه، فلا يُمكن لكلب أن يتعامل مع الغرباء بهذه الطريقة، وما يؤكد ذلك سنه الكبير.. فسنه ليس بالصغير إطلاقًا.

تَحركت (رشا) وتبعها الجميع والكلب، نظرت (رشا) إلى الكلب الذي وجدته لازال يهز ذيله بسعادة:

ـ من أين جئت؟ لو أخبرتني لانتهى اللغز بأكمله.

تابع (علي) السير خلف (رشا) كما تابع الآخرون، كان يشعر بشيء غريب، شعور يجتاحه وكأن ما يحدث بأكمله به شيئًا خاطئًا، فلم يستيقظ في الصباح وهو على علم بأن حياته سوف تؤول لهذا الدرب، لو علم ذلك لما استيقظ أبدًا.

توقف الكلب عن السير وأخذ في النباح بشدة، بطريقة جعلت (رشا) نفسها تتراجع خطوات إلى الخلف، بل وكان الكلب يبتعد عنهم لكنه ينبح.

بدأت السماء تصب غضبها عليهم، وبدأت الأجواء تتغير وتحولت إلى سقيع لا يتحمله بشر، نظرت (رشا) لهم وصوت الكلب لازال في أذنها، يتردد ثم يتلاشى بالتدريج، حتى أن نظرها نفسه يخفت وأصبحت لا ترى شيئًا، سقطت على الأرض فاقدة الوعي.

الغريب أن ما حدث هذا لم يحدث لرشا وَحدها، بل حدث لهم جميعًا وتساقطوا واحدًا تلو الآخر...

اليوم الأول
(ليلة في الماضي)

"هل الماضي هو ما يُغير فينا؟ أم نحن نستطيع التغيير والتلاعب فيه؟ أم أن الماضي مثل الحبر، يجف على الورق ولا تستطيع تغيير ما قد كُتب؟ في الحقيقة أنا حتى الآن.. وأنا أجلس معكم وأقرأ لكم ما قد دونته في تلك المُذكرات، لا أعلم، لكني أعلم أن حياتي لم تعد أبدًا كما كانت. بمجرد أن أنظر في أعينكم، أجد أنني الشخص الأكثر عقلانية في تلك الغرفة"

بمُجرد أن تساقطت أجسادهم على الأرض، شعروا جميعًا بضوء غريب يجتاح عيونهم، وكأنهم قد انتقلوا لعالم آخر لا يفقهون فيه شيء، الصداع ينهش خلايا عقولهم دون رحمة.

الضوء.. ياله من مصدر للإزعاج! لم يكن في أذهانهم أن الضوء قد يكون في يوم ما درب من دروب الجنون؛ لظنهم أنه كلما وجد الضوء في مكان ما فحتمًا سيقودك لما لا تعرفه، لكن كان ظنهم مُخطئًا.. فالضوء الذي يسبب لك الإزعاج قد يُلقيك في بركة

الجنون.

بدأت الأجساد تتهاوى، لكن سُرعان ما حاولوا السيطرة على أنفسهم، لا يعلم أحد ما الذي حدث، لم يستيقظ أحد ولم يعودوا مرة أخرى لوعيهم الكامل.

أول من فتحت عينيها كانت (رشا)، نظرت لهم جميعًا فوجدت من يسعل منهم، ومن لم يستفق بعد، ومنهم من يضع يديه على عينيه مُحاولًا الابتعاد عن الضوء بشتى الطرق.. نظرت أمامها فوجدت عددًا لا بأس به من البشر، يقفون في نظام، ينظرون بلا دهشة لهم، وجوه تكاد (رشا) تُجزم أنها لم ترها من قبل.

بدأ (علي) يستعيد وعيه، نظر إلى المكان فوجده قَد عُمِر من قبل البشر، هُناك أطفال يمرحون في رُكنٍ ما لكنه يَسمع أصواتهم، لقد تغير المكان تمامًا، حتى أن ضوء الشمس سيطر على الأجواء بالكامل وأخذت الحرارة تزداد.

استفاق الجميع، وأصبحوا الآن على دراية تامة بما هم فيه، لكنهم لا يعرفون.. أين هُم؟ نظرة (رشا) كانت غريبة، بما أنها تعمل في الفساتين النسائية والملابس بشكل عام، كانت تعرف أن هذه الملابس قديمة إلى حدٍ ما، نظرات الناس لهم كانت جديرة بالتعجب، لم يقترب أحد منهم رغم أنهم يرونهم أمام أعينهم، لم يُحرك أحدًا ساكنًا تجاههم.

نظرت (لارا) إلى (صلاح) و (حاتم) اللذَين كانا في عالم آخر غير عالمهم، لم يحاولا فهم ما يحدث؛ لأنهما كانا على علم بأن حياتهما لن تعد مرة أخرى إلى سابق عهدها، نهضت (لارا) من موضعها، رغم الخوف الذي يقبض قلبها إلا أنها لا تملك ما قد تندم على خسارته، ازدردت ريقًا ثم تحدثت بصوتٍ عال:

ـ أنا أُدعى (لارا)، وقد جئنا هذا المكان مُنذ دقائق معدودة، ما الذي حدث لنا؟ هل يملك أحد تفسير؟

بدأ الهمس يتصفح آذانهم، فالرجال الغرباء وكذلك النساء يتهامسون بصوتٍ غير مسموع، كأنهم يبحثون عن شخص ما يملك التفسير، لكن لا أحد يتحدث، لا أحد يُحاول حتى النَظر إليهم، وكلما ازداد الوقت.. ازداد عدد الناس الذين يقفون في قبالتهم، الأجواء غريبة، حتى أن الوجوه غير مألوفة لهم جميعًا.

نهض الأربعة من الأرض وعلى وجوههم ترتسم علامات الاستفهام، تشتت تفكيرهم لكن ترسخ فيه فكرة واحدة فقط.. أن خطأً واحدًا ترتكبه كفيل أن يغير حياتك للأبد.

في تلك الأثناء، وجدت (لارا) ـ أو سماح ـ شيخٌ هَرِم يقترب منها على وجهه ابتسامة، بدا وأن هذا الشيخ هو كبير هؤلاء الغرباء، بمجرد أن اقترب أشاحت النساء وجوههن واتسع الطريق حتى يقترب من هؤلاء الخمسة الذين لا يعرفون مكانهم.

ـ السلام عليكم، أنا الشيخ يوسف، وأنا أعلم من أنتم.

بدأ الخوف يسير في مجرى عقولهم جميعًا واضطربت قلوبهم، لكن ابتسامة الشيخ أرست في ميناء أنفسهم قليلًا من الطمأنينة، نظر الشيخ إلى الغرباء وأعطاهم إشارة فتفرقوا جميعًا دون أي حديث جانبي، وظل الشيخ وحده يقف مع هؤلاء الخمسة:

- أنت تعرفنا يا شيخ؟ كيف؟

قالها (حاتم) في عجلة من أمره، تبسم له الشيخ بروح راضية، وقال لهم:

- واجب الضيافة يُحتم علي أن تجلسوا وتطمئنوا، ثم أشرح لكم ما حدث.. وما سيحدث لكم.

أخرج الشيخ من جلبابه ساعة قديمة، ساعة تُفتح بزر من الأعلى ولها سلسلة لتُعلق بها، ومُحيت تلك الابتسامة ثم نظر لهم وهو يحاول ألا يُظهر القلق:

- في الحقيقة لا يوجد إلا ساعة أو أقل من الساعة، لذا اعذروني لن أستطيع أن أقدم لكم واجب الضيافة، وسأشرح لكم..

اعتدلوا في وقفتهم جميعًا، هنا أدركوا تمام الإدراك أن أمر الاختباء من خطأ ارتكبوه في الماضي لن يكون بتلك السهولة، بل سيظل هذا الخطأ يلاحقهم أينما ذهبوا.

- سأسألكم سؤالًا وأود من أحدكم فقط أن يجيبني، اختاروا شخصًا أتحدث معه.

نظروا لبعضهم في حيرة من أمرهم، لكن كون (رشا) كانت مديرة لأعمال كثيرة وصاحبة شركات، فمن الممكن أن تكون جديرة بالتحدث نظرًا لما تُجيده من طلاقة في التعبير، اتخذت خطوة إلى الأمام وقالت للشيخ:

- تفضل يا شيخ، أنا اسمي (رشا).
- أهلًا يا ابنتي، سأسألكِ سؤالًا.. ما هي السنة الميلادية التي تظنون أنفسكم بها الآن؟

ابتسمت (رشا) ببلاهة، ثم قالت للشيخ بثقة:

- ٢٠١٧، بالتحديد ٢١ نوفمبر ٢٠١٧.

تجمدت ملامح (الشيخ) وأطرق رأسه أرضًا، ونظر مُجددًا إليها:

- عندما زرتم هذا المكان، كان بهذه الهيئة؟
- لا إطلاقًا، كان صحراء جرداء.
- طيب.

نظر الشيخ لهم جميعًا، ثم أردف بهدوء:

- لا أود منكم أن تخافوا، لكن هذا المكان الذي دخلتموه عبارة عن بوابة زمنية تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، من أنشأ هذا المكان؟ لا أحد يعلم وربما لن يعلم أحد، لكن بمجرد دخولك هذه البوابة، لن تستطيع التفرقة بين الماضي والحاضر.. أو حتى المستقبل.

كان الشيخ على مقربة من أن يُفجر معلومات صادمة أكثر من ذي قبل:

- أنتم الآن في عام ١٩١٧، بالتحديد ٢١ نوفمبر ١٩١٧، أي أنكم عُدتم بالماضي مئة عام بالضبط.

بدأوا يشعرون بالدوار والإضاءة تعود مرة أخرى لقوتها، كان الشيخ يتلاشى أمامهم، آخر ما سمعوه كان:

- اصبروا، ستعودون حيث جئتم، حاولوا ألا تموتوا.

***

ما أسوأ من كونك لا تعلم شيئًا؟

وهل يوجد أسوأ من وجودك في المجهول وأنت لا تدري أين أنت؟.. نعم يوجد أسوأ، ذلك الصداع الذي أصابهم جميعًا، الضوء الغريب الذي ينتشل كيانهم.. أسوأ من كُل هذه الفلسفة.

حاول (حاتم) أن يُكافح ويرى ما الذي تحاول تلك الأضواء إخفاءه، لكنه لم يجد شيئًا؛ لأنه لم يستطع أن يركز في أي شيء، للمرة الأولى في حياته أصبح الضوء يعميه.

هدأ الضوء وكذلك بدأ الصداع يستكين، وعادت الشمس مرة أخرى إلى موقعها وأصبح الليل هو المسيطر على الأجواء، عادوا لما كانوا عليه قبل الذهاب للماضي، نفس الأجواء الكئيبة والصحراء الغريبة. في تلك الأثناء بدأ (صلاح) يُفكر.. أو في الحقيقة لم يُفكر (صلاح) في أي شيء، نهض مسرعًا من مكانه رغم الصداع الذي

لمصب خلاياه، ورَكض بأقصى سرعة ممكنة، رَكض حتى يهرب مما يحدث فيهم جميعًا، لم يتحدث معه أحد، لم يَصرخ فيه أحد، فقط تركوه لما هو ذاهب إليه.

أي مُزاح هذا؟ بوابة زمنية تفصل بين الماضي والحاضر؟ إنه لحديث من أفلام ولّى الزمن عنها! بالرغم من رَكض (صلاح) وبعده عن المكان هذا، إلا أنه كان يعلم أن ثمة شيئًا ما سيحدث، وأنه لن يستطيع الفرار من هذا المكان بتلك السهولة.

كان يَركض بخوفٍ، أنفاس مُتهدجة لا تعلم ما المُفترض فعله، لم يستطع الخروج من الصحراء لأنه لم يرَ حتى أي ضوء يَدله على وجود حياة بالقرب من هُنا، توقف ليلتقط أنفاسه، أخرج هاتفه حتى يتصل بالشرطة لتنجدهم من ورطتهم لكنه بكل بساطة وَجد أن الهاتف لا يوجد به شبكة للاتصال.

لا يعرف طريق العودة لهم، ولا يعرف طريق الخروج من الصحراء، جلس (صلاح) على الأرض بهدوء لا مثيل له، ثم انفجر باكيًا وصارخًا، ما الذي يحدث له؟ كيف سيخرج من هذه الورطة؟

على الجانب الآخر، فالباقين كانوا جالسين وعلى وجوههم آثار الصدمة، ما الذي حَلّ بهم مرة أخرى إلى هُنا؟ أليس من المفترض أن يظلوا في الماضي كما قال الشيخ يوسف؟

- يجب علينا الهرب.

قالها (حاتم) بوجه حاد وصلب، الهرب هو الحل الأمثل للخروج من هنا، لكن كيف؟ ثم استطرد:

- نحن لا نعرف أسماء بعضٍ حتى، ولا نعرف ما الذي حلَ بنا إلى هذا المكان الغرِيب، لكننا نعرف شيئًا واحدًا فقط.. أننا إذا ظللنا هُنا، حتمًا ستحدث أشياء لا تحمد عقباها لنا جميعًا.

نظرت له (رشا) وبوجه حاد أكثر منه وثابت الملامح، ثم قالت:

- وكيف لنا الهروب؟ نحن في مُنتصف الصحراء ولما وصلنا إلى هُنا لم يكن الأمر بتلك السهولة.

- سنتحرك نحن الأربعة في طرق مختلفة، ومن يصل أولًا يُبلغ الشرطة عن إحداثيات هذا المكان، ثم تأتي الشرطة لتنتشلنا، أما صديقنا الخامس الذي رَكض وحده هذا فلا نعلم أين ذهب وما الذي يفعله الآن.

في ذلك الوقت كان (صلاح) على الأرض، ينظر إلى السماء بخوفٍ حقيقي ويود الدعاء، لكن كيف له الدعاء وهو مُتهم بقتل خيرة شباب شارعه؟

تستطرد (رشا) حديثها:

- نحن الآن في مكان غريب لا تعرف الحكومة عنه شيء، في حقيقة الآمر.. لا يعرف أحد شيء عن هذا المكان.

نظر (صلاح) أمامه فوجد مكانًا صغيرًا ينبعث منه ضوء، التقط أنفاسه بخوفٍ حقيقي ثم نهض.. ما الذي سيخسره إذا ذهب إلى هُناك؟

- في الحقيقة، نحن أتينا هُنا لسببٍ ما، هُناك من اتصلوا بنا وأخبرونا أن حياتنا سوف تنتهي إذا لم نأتِ إلى هُنا، وأنا إذا خرجت إلى العالم مرة أخرى، سوف أموت.. وهُنا ما الذي سيحدث؟ سأموت أيضًا!

رَكض (صلاح) حتى يَصل إلى هذا المكان الصغير، مكان في وسط الصحراء وينبعث منه ضوء! أثارت في ذهنه عدة تساؤلات، من ممكن أن يكون هُناك؟

- أنا أود الهرب، لكن هل من الممكن أن يُخبرني أحد أين سأذهب إذا هربت من هُنا؟ على حسب معرفتنا.. نحن فقط من نعلم هذا المكان.

اقترب (صلاح) من المكان ليتضح أنه أشبه بالكهف الصغير، يشع منه ضوء برتقالي.. شعر بالرعب، كيف لمكان في وسط الصحراء أو تحديدًا "كهف"، أن يُضاء بتلك الطريقة، هل هُناك أشخاص بالداخل؟

- أنا لا أعرف ما المطلوب منا تحديدًا، لكني أود البقاء حتى أكتشف كيف الهرب من هُنا، وأيضًا حتى أتدبر أين سألجأ بعد أن أهرب من هُنا، الحكومة تبحث عني وأعدائي يبحثون عني.

في تلك اللحظة، ابتسم (حاتم) ابتسامة صغيرة حاول إخفائها لكنه فشل، أما (علي) و (لارا) نظرا لها بخوف حقيقي، تلك المخبولة لا تملك أدنى مشكلة إذا ماتت هُنا! نَظر (علي) إلى (لارا) ثم رَكض، رَكض وعقبته في الركض (لارا)، هما لا يودان الموت في مثل هذا المكان، سفر عبر الزمن! هذا ما لم يحلم أحدهما أن تكون نهايته!

إلى أين يَركض، إلى أين تَركض هي الأخرى؟ لا أحد يعلم.. لكنهما يودان الابتعاد عن المَخبولَين اللذَين يرغبان في البقاء، السجن أهون من البقاء في مكان لا أحد يعرفه، وعواقبه تكاد تكون مجهولة.

ابتعدا عنهما، فوجدا شخصًا يقترب منهما وهو يَركض، شخص يَشير إليهما بيده وكأنه يود منهما التوقف، توقف (علي) ومعه توقفت (لارا)، تقريبًا هذا هو الشخص الذي كان معهم ثم بدأ بالهرب.

نظر (صلاح) لهما وبأنفاسٍ مُتهدجة، بدأ يسعل ولعابه ينزل من التعب والإرهاق، ثم قال لهما بحماس:

- لقد وَجدته، وَجدت المكان الذي سيُخبأنا جميعًا.

"في الحقيقة.. اليأس كان يتملكنا جميعًا، لا أحد منا يُدرك ماذا يحدث، لكنا كُنا على علم بأن الموت هو النهاية الأنبل لنا جميعًا.. فالموت فشل، لكنه فشل مُرضي لجميع الأطراف، حتى أنا.. وددت الموت في تلك اللحظة كما لم أحيا أبدًا".

كان (حاتم) يقف معها في الصحراء، ضوء الشمس يهل بهدوء عليهما ليطغي بفضله على الظلام، على وجه (رشا) ارتسم التعب جليًا، لم ينم أحد منهم مُنذ أيام.

فكرّت (رشا)، أين ذهب الباقون؟ لم يُسمع صوتهم، هل هربوا حقًا؟ هل استطاعوا الخروج من الصحراء بسلام؟ كانت أسئلة ترتشف تركيزها، ويُبد لها أنها من الممكن أن تنام لكن النوم هُنا من المستحيلات، نوم في الصحراء وقد يخرج عليها ثُعبان أو حتى حشرات! فهي لم تتربَّ على مثل تلك الظروف الصعبة.

نظر (حاتم) لها برفق، كان على علم بمدى تعبها وأنها تخاف النوم في الصحراء، بابتسامة على وجهه قال لها:

- إما أن تنامي وسأوقظك بعد ساعة، أو أن تنهضي لنهرب مثلما هربوا.
- لا لن أنام، أنا لا أود الهروب.. لكني أود فقط الحفاظ على حياتي.
- إذًا تعالي معي، من الممكن أن نجد مكانًا يُخبئنا للأبد.

تعجبت من لطفه الزائد، لكنها بادلته الابتسام. مدّ يده لها حتى تنهض ثم مدّتها هي الأخرى، نهضت وهي تُعدِل من ملابسها وتنظفها من الرمال التي أغرقتها بالكامل، فسمعت صوتًا لشخصٍ يصرخ، شخص يتحدث بصوتٍ عالٍ.

- هل سمعت ما سمعته؟!

أومأ حاتم لها ووضع إصبعه أمام فمه أن)اصمتي)، بدأت الدماء تجف في عروقها، سمعت صوتًا لشخصٍ يصرخ بشدة، بل أكثر من شخص!

- أنتِ لا تعرفينني، وبالتالي لن تثقي بي، لكني أودكِ أن تثقي بي الآن فقط واركضي خلفي.

بمجرد أن قال تلك الكلمات، رَكض (حاتم) ورَكضت هي خلفه، رَكض حتى يقترب من الصوت.. بالرغم من أن الشمس لم تظل المكان بظلها إلا أنْ ضوء خفيف أطلته جعله يرى، وصوت الصراخ يقترب منهما حتى سمعوا صوت بكاء.

لم يخف (حاتم) لأنه كان على علم بأن هذا الصوت هو صوت زملائه في الهرب، لا يعرف أسماءهم لكنه كان على يقين بأنهم من يقومون بتلك الأصوات، لا يعلم لماذا!

بالفعل وصلا أمام (صلاح) و (علي)، فوجداهما يضربان بعضهما والفتاة (لارا) تَصرخ لأجل هذا. دخل (حاتم) بينهما ليفض النزاع، كان النزاع شديد بينهما لدرجة أن صلاح كان ينزف من فمه وأنفه بشدة، أما علي فهناك آثار ضربات على وجهه فقط.

نجح (حاتم) في فض النزاع وفصلهما عن بعضهما.

أما (لارا) فكانت تصرخ حتى ينجدهم أحد، فكان من الممكن أن يُقتل واحد منهم! لم يعلم (حاتم) أو (رشا) سبب النزاع لأنهما كانا على مسافة بعيدة منهم، لكن وَضح ذلك بمُجرد أن وجدا ملابس (لارا) مُمزقة من أسفل، ففَهِما أن واحد منهما حاول التحرش بها، وفي الأغلب كان (صلاح) من فعل هذا.

بالرغم من كون (صلاح) صيدلي، إلا أن أهل شارعه كانوا على علم بأنه يعشق النساء، وبالرغم من المصيبة التي يمرون بها إلا أنه حاول الترفيه عن نفسه بالتلاعب مع (لارا) لكونها عاهرة كما عرفت نفسها له.

كان يعلم أنها لن تمانع إذا مزح معها، أو حتى مَد يده لتصل إلى مفاتنها، فتعجب بشدة عندما صفعته على وجهه، كيف لعاهرة أن تصفعه على وجهه؟ فقام هو الآخر بصفعها. وعن دون قصد منه مزق ملابسها.

وحينما كان (علي) يتبول بعيدًا عنهما، اقترب بسبب صوت الصراخ وقام بضرب (صلاح) الذي كانت بنيته الخارجية أضعف بكثير من بنية (علي)، قام (علي) بتوجيه ضربات قاسية لوجه (صلاح) وحاول الأخير أن يتصدى لتلك الضربات لكنه فشل بشدة، مما جعل (لارا) تصرخ حتى ينجدهم أحد.

ـ هي عاهرة لا تستحق كُل هذا، لقد قالت لي أنها كانت تعمل بالساعة لمن يدفع أكثر، اسألوها!!!

قالها (صلاح) وهو يحاول وضع يده على أنفه حتى يقف النزيف:

- لقد اعتادت أن يمسسها فرد كُل ليلة، أن يتحسسها.. لماذا تمثل أنها شريفة الآن؟ يا ابنة الزانية، أقسم بالله لن أرحمك.

اقترب (علي) منه ودنا حتى يسمعه:

- أنا من قام بضربك ليس هي، إذا وددت أن تنتقم فانتقم مني.

أبعده (حاتم) وهو يحاول حل المشكلة، وقامت (رشا) باحتواء (لارا) التي لازالت تبكي، تحدث (حاتم) بصوتٍ عال:

- أنا لا أفهم كيف وصلتم لبعض؟ ليست تلك النقطة الآن، أود أن أخبركم أننا لا نعلم أين نحن وفي أي زمن، هل عُدنا مُجددًا للحاضر أم لازلنا في الماضي، قد نموت في أي لحظة وهذا الرجل - مُشيرًا إلى صلاح - يتحرش بفتاة وحيدة! حتى وإن كانت أكبر عاهرة في العالم كله، هذا ليس من شأنك! الله أعلم ما الذي جاء بك إلى هُنا!

حاول (صلاح) الحديث لكن (حاتم) نظر له بصرامة:

- سنتحرك سويًا وسنحاول التوصل إلى أي شيء، بالنسبة لما فعله الأخ - مُشيرًا إلى علي - فأنت غير مُخطئ إطلاقًا وأرفع لك القبعة احترامًا وتقديرًا، وبالنسبة للأستاذ.. ما اسمك؟!

قالها بغضب حقيقي:

- صلاح.. صلاح عابر أبو البر.
- بالنسبة لـ(صلاح)، فإذا قمت بأي شيء مَجنون ومتهور، ليس الأستاذ.. ما اسمك يا أستاذ؟

ابتسم (علي) بهدوء:

- علي، أدعى علي.
- ليس الأستاذ (علي) وحده من سيتصدى لك.. بل أنا، ومعنا الأستاذة (رشا) التي تعرفت عليها مُسبقًا، والأستاذة التي تبدو أصغرنا سنًا لكنها أذكانا.. ما اسمكِ يا فنانة؟

قالت وسط بكائها وهي تحاول السيطرة على أعصابها:

- لارا... لا لا.. اسمي (سماح)، لكني أفضل اسم (لارا) هذا.
- حسنًا، فليكن (لارا)، بالنسبة للفنانة (لارا)، لن تتركك أيضًا، فكُن صديقًا خيرًا حتى لا نكرهك يا أستاذ (صلاح)، اتفقنا؟

كان (صلاح) يشعر بغضب حقيقي، لكنه ظل صامتًا حتى لا يُخطئ مرة أخرى، صحيح أن الوقت غير مناسبًا لأي من تلك الأفعال التافهة، لكن وصوله إلى هذا المكان المُشع بالضوء قد أعطاه بعض الأمل، على الرغم من أنه لم يدخله حتى الآن لكنه كان يشعر بأن هذا المكان هو المُراد.. هو الذي سيُخبئهم مدى الحياة.

كان طامعًا فيما يُمكن أن يجده في ذلك المكان، لذا التزم الصمت ولم يُخبرهم مرة أخرى عنه. بابتسامة على وجه (علي) وهو يُنظف قبضته التي ابتلت بدماء (صلاح):

- لقد قال لي هذا المُتحرش أن هُناك مكانًا من الممكن أن نختبئ فيه، أنا لا أعرف مكانه وكنا في طريقنا له حتى حدث ما حدث.

- أتمنى ألا توجه له الاتهامات مرة أخرى يا (علي)، لقد عرف خطأه.

قالها (حاتم) بصوت نافذ المفعول. بابتسامة طفيفة على وجهه نظر (صلاح) وقال:

- أنا لا أعرف مكانه، نحن في الصحراء ولم أضع أي علامة مُميزة للمكان.

كان يعلم مكانه، لكن حجته كانت قوية حتى لا يحتاج لتبريرها أو أن يُخبرهم بتفاصيل زائدة، لم يقتنع (علي) وأخبرهم أنه سيسير على نفس النهج، بدأ (علي) في السير رغم ما يشعر به من ألم بسبب الضرب المُبرح الذي ضَربه (صلاح) له، لكنه لا يود أن يُظهر ذلك أبدًا.. سار وحده بعيدًا عن الجمع، وهو يُفكر فيما يمكن أن يحدث في الليالي المُقبلة.

تَقدمت (لارا) أكثر حتى تصل له وتُفكر في حديثها التي تود قوله، اقتربت منه ثم قالت بنبرة هادئة:

- أود شُكرك على ما فعلته من أجلي.

ابتسم (علي) لها وقال بود حقيقي:

- أنا لم أفعل شيء.

- لا أعلم كيف يُمكن أن أرد لك الجميل.

- إذا عثرتِ على طعام لا تأكليه وحدك، أعطيني منه فقط.

لمعت ابتسامتها، فابتسم هو الآخر.. لكنه تراجع عن تلك الابتسامة في لحظة وفي عقله الشارد يسأل نفسه، كيف له أن يبتسم وزوجته قد ماتت؟ كيف له أن يتبادل أطراف الحديث مع امرأة غير زوجته؟ كأن حديثه مع امرأة يُعتبر خيانة لزوجته، حتى (لارا) لمحت هذا كُله وقامت بالتراجع حتى تصل للجمع ولا تسير وحدها.

مرت عدة دقائق من الصمت، ثم زادت الدقائق وأصبحت ساعة، وبدأت حرارة الشمس تُهيمن على الصحراء بأكملها، وأصبح العطش والجوع هما المُسيطران عليهم جميعًا.

حينما بدأت الآمال تنخفض واليأس بدأ في التزايد وشعورهم جميعًا بأنهم أصبحوا محبوسين في الصحراء، ظهر المكان على بُعد أمتار منهم.. كان أول من رآه هو (علي) وكان يشعر بأنه في اللحظة التالية له سوف يموت من الجوع والعطش، لكن ظهور المكان أعطى له قليلًا من الأمل.. أمل كان يفتقده حقًا، فربما هذا المكان به طعام وشراب.

سيطرت خيبة الأمل على (صلاح) بمُجرد أن وجد المكان أمامه وبدأ الغضب يظهر على وجهه، فهو لا يودهم الوصول إلى هذا المكان أبدًا حتى ولو بالكذب، لكنه للحظة شَكر الله لأنه لم يَكذب

ويُخبرهم أن المكان في منطقة أخرى غير تلك.

وَصل (علي) أمامه، وبالتالي وَصل الجميع. كان المكان أشبه بالكهف، لكنه كهف له هيبة شديدة، بمُجرد أن نظر له الجميع أصابتهم قشعريرة، على وجوههم ازدادت علامات الاستفهام ونظروا إلى بعضهم.. ثم اقتحم (علي) بوابة الكهف الصغيرة.

كان الكهف مُضيء بهيئة تتعجب لها الأنفس، بعدما خطا (علي) أولى خطواته نظر وعيناه تلمعان من شدة الإعجاب، الكهف مساحته ليست بالكبيرة إطلاقًا، لكنه كان يشعر بأن هذا المكان لا يوجد له آخر، اللون البرتقالي يُسيطر على أنحاء الكهف، في الصخر الموجود به، حتى في الرمال المتناثرة على الأرض، وذلك الضوء البرتقالي أعطى للكهف هيبة كبيرة، ولم يُصدر أحد أي صوت بمجرد أن دخل احترامًا لهذا المكان الغريب الذي لا يعرف أحد ماهيته بعد.

توصل (حاتم) لنهاية الكهف، فلم تكن مساحته كبيرة على الإطلاق يكفي فقط لأن يكونوا بداخله ويناموا على أرضه، سقف الكهف لم يكن عاليًا لكنه كان يستوعب طولهم جميعًا، لذا فقد كان هذا الكهف – من وجهة نظرهم – هو المكان الأنسب للاختفاء عن وجه الأرض، لكن بمُجرد أن دققت (رِشا) النظر في الكهف وَجدت أن هذا المكان لا يوجد به شيء يُمكنهم من الاختفاء فيه، فبوابته الصغيرة تكاد تفضحهم لو جاء أحد للصحراء.. لذا فمن المؤكد أنه ليس المكان المُراد!

ازداد الإرهاق على وجوههم، العطش والجوع في ازدياد دائم، فلم يتناولوا الطعام ولم يشربوا المياه منذ ساعات طويلة، اختبئوا في الكهف من حرارة الشمس لكن الصخر والرمال في الكهف لم يقلا حرارة عن رمال الصحراء.

- لن نجد طعامًا، لن نجد شيئًا إلا إذا بحثنا. أنا لن أستطيع تحمل كُل هذا وسأخرج من هُنا قبل أن أموت.

قالها (صلاح) بنبرة وترتهم جميعًا، الجميع كان يعلم أنه مُحق، كيف فاتهم أن يأتوا ها هنا دون طعام أو مياه حتى؟! هل كانوا على ثقة لتلك الدرجة بمن اتصل بهم؟ فلا يوجد طعام حولهم، الصحراء جرداء ولا يوجد بها أشجارًا يتناولون ثمارها.

بعد أن ذهب اليأس عن نفوسهم بمجرد أن وجودوا الكهف، ازدهر يأس آخر وهو يأس الجوع والعطش.. لكن الدقائق لم تتوانَ، فبمجرد أن بدأ الجميع في الصمت وفي عقولهم يتذكرون ما لذ وطاب من الطعام والشراب.. بدأ الكهف في الاهتزاز وكأن زلزالًا قد ضربه بشدة.

بدأ الضوء يُسيطر على أعينهم وصرخ الجميع من شدة الصداع الذي حل بهم، إلا أنه بمجرد أن مرت عدة دقائق هدأ الاهتزاز تمامًا، ومعظمهم لم يستفق بعد من شدة الصداع، ما عدا (حاتم).

لم يتغير شيء في الكهف.. ظل كما هو، كان (حاتم) على علم بأن هُناك شيء خطأ سيحدث.. أو يحدث بالفعل!، لكنه نهض مُتجاوزًا آلام الصداع التي يمر بها واتخذ خطوات واثقة، على الرغم

من أن الخوف ينهش قلبه إلا أنه لا يود أن يُظهر ذلك أبدًا لأي شخص.. حتى ذاته، ثم خرج من الكهف.

في تلك الأثناء وَجد حشد كبير من الناس يحتفل وأصوات غناء، تلك الصحراء التي كان بها أصبحت مكانًا لم يتخيله أبدًا، حفل واسع مليء بالرجال والنساء، العاهرات والمُحتشمات، لم يستوعب (حاتم) ما يراه.

الليل قد حل وأصوات الغناء ترتفع، نظر (حاتم) إلى النساء لكنه ابتعد فجأة حتى لا يراه أحد واختبأ خلف الكهف حتى يعرف ما الذي يحدث، لكنه لم يستطع أن يتبين أي شيء؛ فأصوات النساء اللاتي يتغنين كانت أعلى من صوت المُتحادثين.

عاد مرة أخرى أمام الكهف، وفي تلك اللحظة بمُجرد أن رآه الجمع، صمتت أصوات النساء اللاتي يتغنين وحدَقت به الأعين، تعلّقت النظرات عليه، وهُناك من الرجال من نَطق بصوت أثار الرعب في نفس (حاتم):

- لقد عاد، لقد عاد.

ظهر ذلك الرجل وكانت هيئته مُريبة، اللحية الفضية تتزين وجهه، حواجبه سوداء ثقيلة، العمامة التي يرتديها في رأسه تُزيده رُعبًا، يحمل السيف ويرفعه للأعلى كأنه انتصر في حرب ما:

- لقد ظننا أنك مُت، حمدًا لله أنك ما زلت حيًا.

ثم توجه للجمع مُبتسمًا وسعيدًا بحق.. واستطرد:

- يا رِجال، اليوم عاد من انتظرناه طويلًا، لذا.. احتفلوا جميعًا احتفالًا يُخلد في ذِكرى هذا الكهف؛ لأننا لن نحتاج لزيارته مُجددًا.

ثم بدأت النساء تُزغرد، وراحت الفتيات تتغنين، وقد تجمدت الدماء في عروق (حاتم) وهو يدعو الله أن لا يخرج أحد من الكهف حتى لا ينكشف سره، بدأت يد (حاتم) ترتعد، فهو لا يفهم ولا يفقه شيء مما يحدث الآن، لكنه يُحاول مسايرة هذا الرجل الغريب، نظر إليه ثم تحدث (حاتم) بصوت منخفض:

- يا سيد، أنا لا أعرفك.

ابتسم الرجل، ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة، ثم انفجر الرجل ضاحكًا وهو يُربت على كَتف (حاتم):

- لا تحاول إقناعي أنك قد تأثرت بما حدث، وحياة الباشا لن أسامحك!

- أنا لا أعرف على ماذا تتحدث بالضبط، لكن أرجوك وبهدوء تام أخبرني كيف تعرفني؟

عندما شعرالرجل بأن حاتم يتحدث بجدية، هدأ ونظر في أعين (حاتم) بحذر وقال:

- أخبرني في أي عام نحن؟!

توتر (حاتم) من السؤال، لكنه كان يعلم كيف يتعامل مع مثل هذه الطريقة:

- مَن مِنا يحق له أن يسأل هذا السؤال؟

- أخبرني حتى أستطيع مُساعدتك.

ازدرد (حاتم) ريقًا جافًا.. ثم قال:

- في ٢٠١٧، هذا الزمن الذي أنتمي إليه.

ازدادت مشاعر الرجل خوفًا وبدأت يداه ترتعد هو الآخر، نظر لـ(حاتم) وأخبره:

- كيف لك أن تذهب إلى المستقبل؟ أجننت؟! أنت تنتمي إلى الماضي، الماضي هو أنت!

شعر (حاتم) بالارتياب من تلك الكلمات، رغم أن الرجل يقولها بنبرة هادئة ومستكينة إلا أن تلك الجمل لم يفهم منها كلمة.

- لا يحق لأحدٍ دخول الكهف أوالخروج منه من دونك، الكهف مسئوليتك إلى يوم الميعاد.

- لكني لا أفهم.. من أنا؟! ما الذي فعلته حتى أصل إلى هُنا؟! أنا أعمل مُحاسبًا في بنك.

نَظر الرجل بخوفٍ خلف (حاتم) ثم تقدم وكأن هُناك عدو ما يقترب منهم، ظهرت ملامح الرُعب على وجه (حاتم) وقد نسي الجوع والعطش.. تلك اللحظات التي ينسى بها المرء اسمه قليلة، بالتأكيد تلك اللحظة سيُدرجها حاتم في تلك القائمة.

- أهؤلاء من أتيت معهم من المستقبل؟

قالها الرجل الغريب لـ(حاتم) بعدما وَجد زملاءه قد خرجوا من الكهف وَسط تَعجب شديد من الناس، لكن الموسيقى والأغاني لم تتوقف.. نظر (صلاح) إلى (حاتم) وكأنه يود أن يسأله ما الذي

- نعم، ونحن الآن نود العودة، أنا لا أصدق شيء مما يحدث.

نظر الرجل الغريب لهم جميعًا، ثم قال بنبرة بها شيء من الوِد:

- يظهر على ملامحكم التعب، يجب أن تستريحوا حتى الصباح.

نَظر (حاتم) له بغضب:

- لن أتحرك من هُنا حتى أدري ماذا يحدث، أنا لا أفهم أي شيء يحدث حولي.

- صدقني يا بُني، كُلنا نُحاول فهم ما يحدث. وكلما أدركنا أننا فهمنا كُل شيء، يحدث ما لا يتوقعه أحد لنعيد حساباتنا مرة أخرى، لذا عندما تستريح وتأكل أنت ومن معك.. سأفهمك كُل شيء.

ثم نظر الرجل الغريب لهم وتحولت نبرته من ود إلى تهديد:

- إياكم أن يقترب أحد من هذا الكهف.. إياكم ثم إياكم.

***

اليوم الثاني
(ليلة في الجحيم)

"وقبل أن تنطق.. قبل أن تستمع لأي كلمة، ستجده ينظر إليك، يسترق النظر لأعينك وهي خائفة، مُتذبذبة، يعشق سماعه لصوت قلبك وهو ينتفض، إذا شعرت به في الأجواء.. اهرب ولا تلتفت خلفك".

هذا الكهف لا أحد يُدرك حقيقته، لا أحد يُدرك ماهيته، هيئته تلك تُخفي أكثر مما تُظهِر، ما أكثر تلك الأسرار التي يبحث المرء عنها حتى يجد إجابة لها.. وحينما يجد إجابة، تقوده لسؤالٍ آخر لم يخطر على باله أبدًا.

هل هذا الكهف من تلك النوعية؟ هل الكهف هو ما أتوا له ليكتنفهم ويُبعدهم عن شر العالم الحقيقي، العالم الخارجي؟ لا يعرف أحد أي إجابة، وحتى الآن لم يتوصلوا لأي استفسار عن أسئلتهم، جلسوا جميعًا في الصحراء وأمامهم افتُرِشت طاولة طويلة عليها الكثير من الطعام والخيرات، دجاج ولحم وغيره من ملذات

الطعام.

كانوا يأكلون جميعًا بشراهة، تناسوا أصلهم المُتحضِر وظهر الشخص ذو الغريزة الطبيعية المُتأصلة في نفوسهم، نسوا أو تناسوا ما يحل بحياتهم وأكلوا حتى امتلأت بطونهم جميعًا.

كان الرجل الغريب الذي لا يعرف أحد اسمه حتى الآن، ينظر لهم وهو يضحك، على الرغم من أنه شخص غريب عنهم جميعًا إلا أنهم شعروا بطمأنينة تجاهه، لم يتصنع اللطف والطيبة لكنهم كانوا على علم بأنه يمتلك حل وإجابة لكلّ أسئلتهم، بعد أن تناولوا طعامهم وهدأوا من فرط الجهد الذي بذلوه أثناء تناولهم الطعام.. بدأوا يستعيدون قوتهم في التفكير، لكن أحدهم وهو (حاتم) غفله النوم في تعجب شديد منهم، كيف لفردٍ مثله وهو الوحيد المُعرض لخطر كبيرة ينام بهذه الطريقة؟ هو الوحيد المعروف وَسط هؤلاء الناس.. كيف يقوى على النوم؟

تبسمت (رشا) للرجل الغريب وحاولت أن تتحدث معه حتى يوصلها لإجابات:

- يا سيدي، في أي زمن نحن الآن؟

كان الرجل يمضغ الطعام فتحدث مُجاهدًا ألا يُظهر صوتُ الطعام وهو يُمضغ:

- نحن في زمن الباشا.

- أي باشا؟

ولقراءتها في التاريخ قليلًا، وبالقليل من التفكير استنتجت:

- أتقصد (مُحمَد علي باشا)؟

أومأ الرجل رأسه في هيبة وكأن الباشا يُراقبه، حتى أنه توقف عن ابتلاع الطعام ونظر لها في عينيها، فاستطردت حديثها:

- وما رأيك فيه؟

- لا أود الحديث عنه، نظرته وحدها تكفي لتُنفيني في الحجاز، وأنا لا أود ذلك.

- هل هو ظالم؟

- لا، لم أقل ذلك ولا أستطيع قول ذلك، لكنه يَكره أن يسمع ما يدور في البلاد، هو أدرى فهو حاكمنا.

اقتحم (صلاح) الحديث وقال بنبرة يغالبها النوم:

- أود أن أخبركم أننا في مُصيبة أكبر من مُحمد علي نفسه، لذا دعنا نصل لاستفسار قبل أن يحل الصباح ونجد أنفسنا قد عُدنا لزمن الفراعنة.

نظرت (رشا) له بتفهم، في الحقيقة هي غير مُهتمة الآن بأي شيء غير عودتها مرة أخرى لزمنها، أو أن تنتهي من ذلك الكابوس الذي كانت تظن أنه سينتهي بمجرد رغبتها في ذلك، لكنها الآن تود الابتعاد عن كُل شيء يزعجها وتود الاسترخاء التام، ودّت فقط أن تتحدث معه حتى يستريح لها فيجاوبها دون أي فلسفة فارغة:

- أود منك أن تساعدنا.

- وكيف لي أن أفعل ذلك؟

- بأن تُجاوب على أسئلتي، ولن تكون أسئلة صعبة صدقني

أومأ الرجل في انتظار الأسئلة:

- ما طبيعة هذا المكان؟ وما الذي يحدث فيه؟

اعتدل في جلسته ثم نظر لرشا وأخبرها:

- هذا المكان لا أحد يدرك طبيعته، مُنذ بدء الخليقة وهذا المكان لم تتغير هيئته، ضوء برتقالي يشع منه في الليل وفي النهار قليلًا، وبمجرد دخولك تجد أن شعورك قد تغير وأصبحت إنسانًا آخر، هذا الرجل الموجود أمامكم - مُشيرًا إلى حاتم - هو نفسه بمجرد أن دخل هذا الكهف لم يتذكر أي مما حدث، لكنه في الأيام المقبلة سيتذكر وسيعرف سبب مجيئه.

شَرب قليلًا من الماء أمامه، واستطرد:

- ما الذي يحدث فيه؟ لا أحد يعلم..ولكن إذا دخل هذا الرجل سنجده بعد دقائق قد اختفى، أما إذا دخل أي شخص آخر نجده في الكهف ولم يحدث له أي شيء، لذا هذا الكهف حُرِم على أي شخص دخوله، نضع حراسة يوميًا على بوابته في انتظار عودته، قد دخل هذا الكهف مُنذ سنوات طويلة واختفى.. والآن قد عاد، ولا أحد يعرف حتى هو نفسه طبيعة هذا الكهف، لقد نسي أو تناسى ما حدث، لذا فهو أملكم الوحيد لمعرفة السبب.

- ما هي قوانين هذا المكان؟ وما هو المطلوب منا؟

- أنا لا أعرف صدقيني، أنا مُجرد شخص كان صديقًا لهذا الرجل النائم، أتبعه في خطواته، أنتظر يوم اختفائه كُل عام أمام الكهف وقبيلتي تنتظره معي حتى جاء اليوم.. لكن هُناك مُعضلة لا أُدرك أبعادها.

أخذ الرجل نفسًا عميقًا ثم نظر إلى (علي) غير المشارك في الحوار:

- الذهاب للمستقبل في هذا الكهف قد يكون له توابع وخيمة لا يُدركها أحد، قد تظهر بعد مرور أيام أو سنوات، هذا الرجل قد ذهب إلى المستقبل لأنه الوحيد – حسب معرفتي –الذي يستطيع الانتقال بالزمن.

استيقظ (حاتم) فجأة من نومه، الخوف لا زال يتملك نظراته ويتحكم بها، نظر لهم جميعًا ثم قال:

- من الممكن أن نموت جميعًا الليلة، هذا ما قد سَمعته في الحلم.

تعجب الرجل من هذه الجملة وأدرك أن وجود (حاتم) هُنا أصبح خطرًا عليه هو شخصيًا، اقترب الرجل منه دون حتى أن يفهم ما الذي حدث:

- أنت لست بخير هُنا، يجب ان أُبعدك عن الصحراء.

بدأت الأقاويل والأسئلة تزداد في عقولهم، هل اختفاءهم يعني هروبهم من الحاضر وعودتهم إلى زمن بعيد؟ إذا كان هذا هو المُراد فهو يتحقق الآن بأنهم في زمنٍ بعيد حتى عن سنة ميلادهم. فكر

(حاتم) في ذلك وقال لهم:

- ما رأيكم؟ هل نظل هُنا أم نعود مرة أخرى للكهف؟

قطع الرجل حبل أفكارهم ثم نطق:

- أنا أرى أن تناموا الآن وتستيقظوا في الصباح الباكر ثم تفكروا بعمق، الآن لن تستطيعوا التفكير في شيء.. ولا تقلقوا هُنا مكان آمن.

أومأت (لارا) رأسها على هذا الاقتراح، فوجدوا جميعًا أنهم في حاجة إلى الارتياح والابتعاد عن كُل ما قد يشتت ذهنهم، فالنوم خير وسيلة للهروب من واقع أليم.

نهض الرجل من موضعه وقال:

- للأسف قبيلتي لا يوجد بها أي خيم زائدة، لكننا نمتلك الحُصر حتى تناموا فوقها.

نظر (علي) لهم وقال:

- من الممكن أن ننام في الكهف وألا نخرج منه أبدًا إلا إذا توصلنا لشيء واضح.

لم يفهم أحد وجهة نظر (علي)، فأردف:

- أقصد أن الصحراء ليلها بارد ونهارها جُهنم نفسها، لذا الكهف - أضعف الإيمان - سيحمينا من هذا كُله، وفي النهاية حتى الآن لم نجد منه ضررًا، وأنا لا أود أن أعيش في زمن يبعد عن زمني الحقيقي بمئتي عام.

صمت الرجل، فرفض (حاتم) بهدوء:

ـ لا أرى أن هذا صواب.. لـ....

قاطعه (علي) بحدة:

ـ من أنت لتصدر قرار؟ نحن نُفكر جميعًا. الله أعلم ما الذي تُخفيه عنا ومن أنت أصلاً؟!

ـ أنا لم أصدر قرارًا أبدًا، أنا فقط أفكر معكم بصوتٍ عال، فالكهف غير مضمون.

ـ الصحراء غير مضمونة، هذا الرجل مع احترامي الكامل له غير مضمون، أنت نفسك غير مضمون وأنا حتى غير مضمون.

ـ لذا فالحل الأسلم أن ننام في الكهف؟!

ـ نعم، هذا من وجهة نظري وسأقوم به حتى لو قُمت به وحدي.

نظرت (رشا) في هدوء وقالت لهم:

ـ أنا أرى أن حل الأستاذ (علي) منطقي.

وأومأ (صلاح) أيضًا فتبعته (لارا)، لذا نظر (حاتم) لهم بخيبة أمل تكاد تكون أقرب للمصطنعة، وقال لهم:

ـ أيًا ما تريدون، أنا مُجرد واحد منكم لست أعلاكم شأنًا.

***

"من الممكن أن تموتوا الليلة.. احذر".

قيلت له تلك الجملة في حُلمه وتطارده، تُلاحقه، كأنه هو من سينقذ أرواحهم من الموت المُحتم. ما أسوأ أن يكون الخوف مُصاحبًا لك في أحلامك، في خطواتك، يُلاحقك في أنفاسك ويُطاردك في نومك.

الخوف.. ياله من شعور كافٍ لقتل أمة.

أما هو، فلا يستطيع النوم كما نام أصدقاءه، أعينه تراقب مدخل الكهف، حتى الآن لم يحدث شيئًا غريبًا أو مُخالفًا للتوقعات، في اللحظة التالية وجد الرجل الغريب يقف أمام الكهف وفي يده يحمل ملاءة بداخلها أشياء ثقيلة، خَرج (حاتم) له بخطوات هادئة حتى لا يوقظ زملاءه، ثم تحدث مع الرجل:

- أنا لا أعرف كيف أرد لك الجميل؟

رَبت الرجل على كَتفه ثم ابتسم:

- لا أود منك جَميلًا، أود منك أن تظل على قيد الحياة، هذا المكان حسب ما توارثته من أهلي مُرتبط بك.
- ما اسمك إذًا؟
- أنا صديقك، ولا أرتقي حتى لأكون صديقك.
- لا تبالغ في الشكر فينقلب ضدك.
- لا أبالغ، لكنك الأهم.. أنت الأصل.

ألقى الرجل الملاءة على الأرض فخرج منها سيوف وخناجر وسكاكين يلمع نصلها:

- هذه الأسلحة اجعلها بحوذتك، أعلم أنك لن تحتاجها لكن اجعلها معك إذا حدث أي شيء غير مألوف.

نظر (حاتم) له بابتسامة، كان يشعر بأن هذا الرجل يعلم ما يدور لكن لا يود إخباره، أخذ السيوف وما كان على الأرض ووضعه بداخل الكهف. نظر الرجل الغريب له وقال:

- أودعك يا سيدي، لطالما ستظل سيدي.

قالها الرجل بابتسامة مُريبة ثم التف وذهب بعيدًا حتى اختفى عن الأنظار، دخل (حاتم) الكهف وهو في انتظار ما قد يحدث، وضع رأسه على الحصيرة بجوار (صلاح) وهو يُفكر إلى أن غافله النوم وهو لا يعلم ما قد يحدث.

" في تلك اللحظات – وهذا ما لم أكتبه في المُذكرات – سَمعنا أصواتًا لأشخاص يتحدثون خارج الكهف، مما جعلنا نستيقظ جميعًا لنجد مالمً يتوقعه أحد منا".

استيقظت (لارا) على صوتِ شخص في الخارج يَهمس، ازدادت الأصوات حتى أصبحت لا تقوى على عدّها لكنها كانت تعلم أن ثمة شيء ما يحدث في الخارج.

نظرت إلى (علي) وقامت بهز ذراعه حتى يستيقظ، بمُجرد أن نظر لها وجدها تضع إصبعها على فمها وتقول له بلغة الإشارة "اصمت واستمع"..فدقق السمع حتى استمع لشخص يقول:

- أنتم متأكدون أنهم بالداخل؟

نظر مرة أخرى إلى بوابة الكهف فوجدهم أفرادًا من الشرطة، ذُعر (علي) وشعر بأنه قد يُغشى عليه من شدة التوتر والخوف، نظر لـ(صلاح)، رغم ما حدث بينهما إلا أن الوقت حرج.. أيقظه ثم أيقظ (حاتم) بهدوء تام.

جميعهم استيقظوا ليجدوا الشرطة تقف على بوابة الكهف ولا تود الاقتحام. نظر (حاتم) للسيوف والخناجر الموجودة على الأرض وأشار لهم بأن يلتقط كُل واحد منهم سيف. تلك هي الأسلحة المتوفرة أمامهم.

بدأت (لارا) في البكاء بصمت شديد ولا تود حتى أن تُظهر أنفاسها، هل انتهى كُل شيء بتلك البساطة؟ سيتم القبض عليهم وإعدامهم بسبب التهم المنسوبة إليهم! لم يُصدق أحد ما يحدث.

عادوا مرة أخرى للحاضر وقد وصلت الشرطة إلى مكانهم، اختبئوا جميعًا في خبايا الكهف حتى تتعطل الشُرطة قليلًا، سَمعوا صوتًا لفردٍ من الشرطة يُخبرهم بصوت عال:

- اخرجوا، نحن نعلم أنكم بالداخل.

أشار (علي) لهم بألا يتحدثوا وأحكم قبضته على سيفه.. كذلك الباقين بدأوا يشعرون بأنهم لا يمتلكون شيئًا لخسارته، إذا دخلت الشرطة فحتمًا سيتم القبض عليهم جميعًا.

حسب ما رآه (علي) لأنه الأقرب للبوابة الصغيرة، كان عدد أفراد الشرطة لا يتخطى الخمسة أفراد، لكن كُلهم مُسلحين، سمع فردًا يقول للآخر:

- أنا لست مُتأكد أنهم بالداخل فقد مرّ على هروبهم يومًا كاملًا، كيف لم يأكلوا ولم يشربوا؟

- شششش.. لا تتحدث، اصمت.

ابتسم (صلاح)، هم خائفون من الدخول وهذا واضح بشدة على طريقة حديثهم. فاستطرد:

- سنُعطيكم مُهلة ثلاث ثواني، إذا لم تخرجوا سنضطر للتعامل مع الموقف بشكل لن يعجبكم.

بدأ صوت نبضات قلوبهم يزداد، العروق تنبض وكأن هُناك فرد يقرع الطبول بها، ثم بدأت الشرطة في العد تنازليًا حتى ينتهى عدد الثواني.

لكن لحظة، ماذا إن انتهت تلك الثواني؟ ما الذي سيحدث لهم؟!

قُبيل الوصول لإجابة، اقتحمت الشُرطة الكهف.. ثم حدث ما لم يتوقعه أحد مرة أخرى، قام (علي) بخنق فرد الشُرطة بيده اليُمنى، ويده اليُسرى تضع السيف على عنقه، ثم قال لأفراد الشرطة:

- إذا قام أحدكم بتصرف همجي، سأقوم بقتل صاحبكم.

لم يكن يعلم كيف قام بهذا، لكن الرعب.. الخوف، كفيل أن يجعل المرء يفعل ما لم يحسب أبدًا أنه قادر على فعله، نظر (علي) لزملائه وجدهم جميعًا خائفين، خاصةً (لارا) التي بدأت تبكي بشدة حتى أن السيف قد سقط على الأرض من شدة بكائها.. أو خوفها!

- سيقترب منك شخص، ضع سلاحك في يده.

أشار (علي) لـ(صلاح) برقبته فذهب لفرد الشرطة وأخذ منه السلاح ثم وجهه تجاه البوابة، كان يعلم أنه لن يستخدمه لكن.. ماذا إن حدث الأسوأ؟

- أنت تضع نفسك في ورطة.

قالها الضابط لـ(علي) بلهجة مُتوترة:

- صدقني، أنا لن أقع في ورطة أكبر من الورطة التي أنا بها الآن.

في تلك اللحظة اقتحم أربعة أفراد من الشرطة الكهف، ومن شدة توتر (صلاح) وخوفه ضغط على الزناد فانطلقت رصاصة تعدو نحو رأس ضابط آخر.

ماذا لو فعل غير ذلك؟ سيقومون بتسليم أنفسهم، سيُحاكمون مُحاكمة شديدة وستقوم الحكومة بإعدامهم، لذا فالفارق ليس ببعيد، لم يندم (صلاح) على ما ارتكبه وأنه قتل فردًا من أفراد الشرطة، لكنه نَدم على ما حدث لاحقًا.

بدأت حفلة الدماء في الانطلاق، قام الضابط الذي يمسكه (علي) بإبعاد يده، لكن (علي) وبحركة غير واعية ولا إرادية قام بوضع السيف في معدة الضابط، حتى أن (علي) نفسه لم يُصدق ما يراه وأنه قام بقتل شخص ما حتى ولو كان عدوه، قام بإخراج السيف فتألم الضابط أكثر.. ثم مات.

نَظر الثلاثة أفراد الآخرون بخوف، لكنهم وجهوا المُسدس ناحية (علي)، فقامت (رشا) بالاقتراب من خلفهم وأخذت المُسدس المُلقى على الأرض بجوار جُثة الضابط الآخر، ثم قالت لهم:

ـ يكفي لهذا الحد، يكفي.

نظر واحد من الضباط لها، ثم قال:

ـ نحن لن نعود من هُنا إلا وأنتم معنا.

وقام بتوجيه المُسدس ناحية (علي) لكنه لم يضرب، فقامت (رشا) بإطلاق الزناد فخرجت الرصاصة واخترقت ظهره، سقط على الأرض والدماء قد ملأت الكهف بالكامل، حتى أن وجوههم جميعًا قد أصبحت مُلطخة بالدماء.. هذا ما لم يكن في الحُسبان أبدًا.

سَقط المُسدس من يَد (رشا) من شدة الرعب ومدى شعورها بأنها ارتكبت خطيئة القتل، لقد فعلت ما لم تتوقع أن تفعله أبدًا، لكن إذا لم تفعل هذا سيتم القبض عليها وستُسجن لمدة طويلة المدى.. فما الفارق؟

تبقى اثنين من الخمسة ضباط، نظر واحد منهم للآخر وقال:

ـ أنا لا أود الموت، اتركونا نذهب ولن نُخبر أحدًا أننا رأيناكم.

في تلك اللحظة كان (علي) يُدرك أنهم لن يفعلوا ذلك، بمجرد أن يذهبوا سيعودوا بقوة أكبر بكثير حتى يقتلوهم جميعًا، لذا كان القرار قد حُسِم بالنسبة لـ(علي).. أخذ المُسدس من يَد (صلاح) وقام بإطلاق الرصاص على الاثنين، جاءت رصاصة في رأس أحدهما

فتفجرت تمامًا حتى أن الآخر أطلق صَرخة دوّت الصحراء بأكملها، ولم تكتمل صرخته لأن رصاصة أخرى قد اخترقت قلبه فمات بجوار صاحبه.. ألقى (علي) المُسدس على الأرض ثم نظر لهم:

- كُنا سنموت لو لم نفعل ذلك.

***

بعد مرور ساعة ونصف على الحادث، وبعد أن تكاتفوا جميعًا دون أي تفرقة بينهم كي يخفوا الجُثث في الصحراء، خَرجوا إلى الرمال وعلى عاتقهم حُمِلت ذنوبهم وجُثث أفراد الشرطة، لِمَ حدث كُل هذا لهم؟

الشمس قد سارت على نهج المغيب، وبدأ الهواء يَلفح وجوههم لكنهم لا يشعرون بقيمته، تلك الليلة هي الأصعب بكل تأكيد في حياتهم، كُلما مرت الليالي عليهم وَجدوا أن ما قد مر لا يُقارب ما قد رحل في شدته، في قسوته، لذا كانوا جميعًا صامتين لا يَتحدث أحد مع الآخر، يُركزون فقط على ما ارتكبوه، وتلك الجريمة التي طالت أظافرهم جميعًا.

ساروا على مسافة بعيدة جدًا بعد أن ظل (حاتم) في الكهف حتى يُصدر لهم صوتًا فيتحركوا ناحيته إذا غَرقوا في جوف الصحراء، وظلت معه (لارا) تُهدئ ذاتها وتبكي بشدة، هي لا تستوعب ما يحدث وأنهم قَتلوا خمسة أفراد من الشرطة، الآن أصبحوا مُجرمين حقيقيين، وبالتأكيد لن تصمت الشرطة ولن تتهاون معهم وستقرّ أقصى العقوبات عليهم جميعًا.

ظل (حاتم) غير مُصدقًا لما حدث، على الرغم من أنه لم يَقتل أحدًا مثلما قَتل (علي) و (صلاح) و (رشا)، إلا أنه لم يستوعب منظر الدماء المُتطاير في الأجواء، الكهف الذي أصبحت جُدرانه الصخرية مُلطخة بدماء ستظل شاهدة على ما فعلوه.

نَظر (حاتم) لها فوجدها جالسة القرفصاء في رُكن من أركان الكهف ولا تود الحديث. حتى أنهم لما تحدثوا معها نظرت لهم بخوف وغضب، قد تكون أكثرهم قذارة أخلاقيًا، هي تعلم تمام العلم أنها كذلك، لكن هل هُم يعلمون أنهم مثلها؟ أم يصطنعون نظافة لم ترها أعينهم؟ كانت تعلم أنها لا تشبههم في التربية أو حتى لا تقربهم في العمر، هي أصغرهم وأكثرهم حيوية، لكن – من وجهة نظرها – كانت تعلم بأنها الأكثر عقلانية، على الأقل لم تباغت الشُرطة وتقتل أفرادًا منها.

ـ ألم ترِ أحدًا يُقتل من قبل؟

صمتت (لارا) قليلًا بعد أن واتتها كلمات (حاتم) بنبرة باردة، ثم هزت رأسها نافية:

ـ عليكِ أن تُدربي عينك على هذا المَنظر، إنه بشع.. لكنكِ سترينه كثيرًا في الأيام المُقبلة.

وابتسم لها ابتسامة لا تدل إلا على قلة حيلة وحُزن دفين لكنه لا يود أن يُظهره، هكذا شعرت به (لارا)، هكذا رأت في عينيه ذلك الحُزن الذي لم تجده في نظرات الآخرين، قامت بتهدئة نفسها حتى تستطيع تهدأته، ثم نهضت من موضعها واقتربت منه:

- هل أنت حَزين؟

قالتها بنبرة غير مُنتظمة كالأطفال، فشاح وجهه عنها وقال دون أن ينظر لها:

- وكيف لي أن أكون سعيدًا في خضم ما يحدث؟ أنا أشعر بأنني السبب في كُل ما يحدث.
- أنت لم تجعلني أقتل.
- نعم، ولكني أعلم كُل شيء وفي نفس الوقت لا أعلم.
- أنا لا أفهمك.
- أنا نفسي لا أفهم، لكني أعلم أن كُل شيء سيتضح مع الوقت.
- يجب أن تظل قويًا يا (حاتم).
- إلى مَتى؟ لا أحد يعلم ما الذي سيحدث لنا.
- ولن يعلم أحد، أنا لا أعرفك لكني أرى أنك طيب القلب.
- وأنا أرى أنكِ نظيفة رغم ما كُنتِ به.

ابتسمت (لارا)، رغم كُل ما يحدث لكن تلك الكلمة جعلتها تبتسم.. مَسحت الدموع الباقية من عينيها، ثم نظرت له:

- لكني لست كذلك.
- أنا أرى ذلك، أنا أعرف المرء من نظرته، ونظرتك هذه لا تكذب.
- لكن النظرات ليست دليل على شيء.

- لا أحد يستطيع اصطناع نظرته، قد يستطيع تغيير هيئته بأن يرتدي ملابس فَخمة حتى لا يُظهر فقره، أما النظرة التي يُلقيها الشخص لا تكذب أبدًا.

- وماذا رأيت في عيني حتى تقول كُل هذا؟

ابتسم (حاتم) أيضًا، لكنه شعر بأن هذا الحديث غير ملائم لتلك الأجواء، فحاول أن يُغير من ملامحه الطيبة ويجعلها حادة حتى تتفهم أن ذلك الحديث يجب أن ينتهي. احترامًا لأصدقائهم الذين ذهبوا ليخفوا الجُثث ولم يعودوا حتى الآن.

- لِمَ لم يعودوا حتى الآن؟

قالتها (لارا) بنظرة بلهاء، هي حقًا لا تعرف الإجابة ولا تعرف كيف سيعودوا حتى، لكنه كان يعرف أنهم سيعودوا، بمُجرد أن تختفي الجُثث في الصحراء سيعود كُل شيء كما كان ولن يضطروا للخوف.

كان يعلم أنه يَكذب حتى يطمئن قلبه ويستريح عقله.. كيف للكذب أن يكون وسيلة للاطمئنان؟ يسأل نفسه دومًا، هل ما يحدث هو عقاب على ما اقترفه في الماضي من أخطاء؟ لكنه لم يقتل، لم يزنِ، لم يخرج عن طوع ذاته الأمارة، إذًا لماذا يحدث فيه كُل هذا؟ هو يرى أنه لا يستحق ذلك العقاب الشديد.

جلست (لارا) في موضعها واستراحت حتى اشتد عليها ألمّ نفسي لا يقوى أحد على تحمله فنامت، نامت وهي لا تود التفكير في شيء، بمُجرد أن نامت جاء الثلاثة أفراد من الصحراء ودخلوا

الكهف في هدوء مُريب.

"قليلة هي اللحظات التي تشعر فيها أن الحياة قد استطاعت هزيمتك، استطاعت القضاء على طموحك وإطفاء بصيص الأمل الذي كُنت تتشبث فيه، على رغم من قلتها إلا أن تلك اللحظات كفيلة أن تُدمر حياتك للأبد، تجعلك أضعف من أن تنظر لنفسك في المرآة. تُخبر ذاتك الواهنة أنك تستطيع، وفي الحقيقة أنت لا تستطيع".

لم يتحدث أحد، لم ينظر أحد إلى الآخر، الدماء كانت مُسيطرة على ملابسهم ووجوههم، على رغم من أنهم حاولوا مسحها إلا أن هُناك بعض قطرات الدماء لازالت في ملابسهم. كان (علي) أكثرهم ذُعرًا وخوفًا، لقد قام بقتل ثلاثة منهم، لم يكن مُعتادًا على أن يرى هذا الكم من الدماء، يداه بدأت ترتعد من هول الموقف.

القتل! كَلمة كان يسمعها أثناء طفولته ويتعجب منها، كيف لشخص أن يقتل شخصًا آخر مهما كانت الأسباب؟ كيف يرى جُثته على الأرض والدماء تُحيطه دون أن يموت هلعًا؟ لم يُصدق الآن أنه أصبح أسوأ مما كان يتخيل في طفولته.

أبعدوا الجُثث عن الكهف حتى يستطيعوا النوم دون أن يشعروا بأرواح من قتلوهم تروح وتجيء فيه، لذا كان الخوف يُسيطر عليهم، كُل ما يحدث خارج عن حدود المَنطق، فلا عَجب إن طاردتهم أرواحهم في أحلامهم.

- أكانت تلك الخطيئة الأكبر؟

قالتها (رشا) بهدوء دون أن تنظر لأحدٍ فيهم، في انتظار سماع إجابتهم جميعًا، لكن بادرها (صلاح):

- لقد قتلت اثني عشر شابًا من شباب شارعي دون قصد، أظن أن ما حدث الآن لا يُعتبر خطأً مقارنةً بما قد اقترفته بالفعل.

حاول (حاتم) أن يَكسر ذلك الحائط المَبني في نفوسهم، فمزح قائلًا:

- من الواضح أن هيئتك استطاعت قتل اثني عشر شابًا.

نظر (صلاح) باستياء إلى حاتم، فعلى الرغم من بنية (صلاح) الضعيفة إلا أنه كان يعلم بقوته العقلية وحتى الجسمانية، لكن لم يلحظ أحد ذلك نظرًا لنحافته:

- لم أقتلهم عن قصد، أنا أصنع مُخدِر بدائي الصُنع وكُنت أبيعه لشباب الشارع بثمن بخس، وفي مرة أخطأت في مكونات المُخدِر لا أدري كيف حتى الآن، فتحول المُخدِر بقدرة قادر إلى سُم قام بقتلهم جميعًا.

تنبهت الأذهان لما قيل - عدا لارا التي لازالت نائمة - فاعتدل (علي) في جلسته حتى يستمع بتركيز، ثم أردف (صلاح):

- لن أقول سوى أنني أستحق ما حدث بي من أهل شارعي، طردوني وقالوا أنهم سيقتلونني إذا رأوني صدفةً، ومن المؤكد أنهم أبلغوا الشرطة عني، لذا كان عليّ الهرب.

ابتسم (صلاح) وهو يتذكر ما حدث، ثم استطرد:

- كُنت أظن أن ما حدث سيكون النهاية، وأنني لن أتعرض لشيء سيئ في حياتي، فما أسوأ من أن تقوم بقتل عددًا لا بأس به من الرجال بسبب خطأ أخطأته أنت، لكني أُفاجأ دائمًا بأن هُناك الأسوأ وليس عليّ إلا أن أتقبله بصدر رحب.

حينما دققت (رشا) النظر في عينه وجدته يُحاول جاهدًا أن يُكبت دموعه حتى لا تُذرف، إلا أنه فشل في ذلك فسقطت دمعة من عينيه:

- أنا أستحق ما يحدث لي، لكني قد دفعت الثمن.. فهمت الدرس، لماذا يحدث لي هذا حتى الآن؟ أنا لا أقوى على القتل، كيف قَتلت شخصًا يقوم بواجبه؟

نظروا جميعًا إلى بعضهم، لم ينبث أحد ببنت شفه، لكن (عليِ) على الرغم مما حدث بينهما في وقت لاحق قام بوضع يده على كتف (صلاح) ليُطمئنه، ثم أردف صلاح:

- ألا أمتلك الحق الآن أنا أرى الشارع؟ أن أستمع الموسيقى؟ أنا أنظر إلى الناس؟ في ليلة وضحاها ذهبت تلك الحقوق مع الريح ولم تعد موجودة أبدًا.

هدأ (صلاح) ومسح دموعه، ثم ابتسم شاكرًا لـ(علي) الذي حاول تهدأته.. فنظر له وقال:

- وأنا لن أسامحك على تلك الضربة القوية في أنفي، لازالت تؤلمني حتى الآن.

ابتسم (علي) مُجاملًا، ثم نظروا جميعًا إلى لارا النائمة، فتحدث (حاتم):

- إنها أكثرنا طيبةً ونقاء.

نظر (علي) لها فوجدها تنام كالأطفال، تضع يديها على رُكبتيها ورأسها على يديها، شعرها الأسود يلامس الأرض، لا يعلم ما طبيعة الشعور تجاهها إلا أنه يبتسم حينما يراها، ولا يعلم لماذا.

- نعم، إنها كذلك.

قالها (علي) بابتسامة طفيفة مما جعل (رشا) تَضحك بسخرية:

- لقد وقعت في حبها!

نظر (علي) بسخط، فقال لها:

- قولي هذا لشخص لم تُقتل زوجته.

صمتت (رشا) تمامًا ومُزقت ابتسامتها، شعرت بإحراج حقيقي بمُجرد أن قال تلك الجملة:

- أنا آسفة، حقيقي آسفة.

- لا تعتذري، أنا أُخبركم فقط بخطيئتي، لقد كانت تُحبني بصدق.

انتظر الباقون حتى يُكمل (علي) كلماته، إلا أنه اكتفى بذلك القدر.. نظر لهم وقال:

- أود النوم، أنا لم أنم جيدًا.

نَطق (صلاح) كلمات شعر بأنها غير مُناسبة:

- كيف سننام ومن الممكن أن تأتي الشُرطة مُجددًا في أي وقت؟!

أجابه (حاتم) بثقة:

- لا أدري لماذا، لكني أشعر بقوة أنهم لن يأتوا مرة أخرى، لذا نَم واسترح وسأقوم أنا بحراسة الكهف حتى تستيقظوا، من الممكن أن نستيقظ فنجد أنفسنا في زمن آخر غير زمننا هذا.

استراح (علي) على الحُصر الذي أهداها الرجل الغريب لهم، فأردف (حاتم):

- صحيح، هُناك طعام بجانب (لارا)، أعطاه الرجل لنا ونسيت أن أخبركم ذلك.

لم ينتبه أحد، على الرغم من مرور مُدة طويلة على آخر مرة تناولوا فيها الطعام، إلا أنهم لم يشعروا بجوع.. كانوا في إرهاق كبير بعد أن نقلوا الجُثث وقاموا بسحبها من الكهف إلى مكان بعيد تمامًا عنه.

نام (علي) فلحقه الآخرون عدا (حاتم)، كان يجلس أمام الكهف وقد انطفأ ضوء الشمس تمامًا وحلّ الليل المُقيت، حتى أنه كاد ألا يَرى شيئًا أمامه، كان الخوف يتلاعب به، وفي قرارة نفسه يَشعر بأن هُناك شيء خطأ سوف يحدث.

في الدقائق التالية، بمُجرد أن نام (علي) بدأت الأحلام تُراوده، ضوء كبير مُسلط على عينيه، يَنظر فيجد ذاته في سرير كبير في مَنزل ما، كان (علي) يعلم أنه في حلم لكنه لا يستطيع التحكم في مَجرى الأحداث.

نظر أمامه فوجد دماء تُغطي السرير بأكمله، كان على علم بأن السرير مُغطى بالدماء ولم يُحرك ساكنًا، نظر على يده فوجد أنه يمسك بسكين يلمع نصله، وأمامه وُجد رَجل ما يُعطيه ظهره.. اقترب (علي) منه وغرس السكين في ظهره فانفجرت الدماء، لم يكتفِ (علي) بذلك القدر، بل قام بغرس السكين مراراً وتكرارًا في ظهره حتى أن صرخة الرجل أيقظته من نومه.

انتفض (علي) من نومه مُرتعبًا، خائفًا، ما الذي حدث في ذلك الحُلم؟ من هذا الرجل الذي قتله؟ أم هذا الرجل كناية لأفراد الشرطة الذين قتلهم؟

نظر أمامه فوجد (حاتم) يجلس أمام الكهف وحيدًا، لم يستطع الخروج له لأن الخوف كان مُسيطرًا عليه، قام بتهدئة ذاته وأنه مُجرد حلم لا داعي لأن يُسيطر على ذهنه، رآه (حاتم) فصاح فيه حتى يجلس معه لكن (علي) رفض وقام باستكمال نومه.

***

اليوم الثالث
(ليلة مع النيران)

"حينها لم أكن أدري.. هل العودة مرة أخرى إلى العالم الحقيقي هي الصواب؟ أم الاستمرار في الهرب رغم ما نواجهه من مآسي وصعوبات تكاد تقتلنا؟ في الحقيقة أنا لا أعرف".

استيقظ (صلاح) فجر اليوم الثالث في الصحراء فوَجدهم جميعًا نائمين في هدوء وسكينة، رغم ما واجهوه من صعوبات إلا أنهم استطاعوا النوم بهدوء شديد.. حتى أنه وجد (حاتم) قد نام في الكهف معهم.

خَرج (صلاح) وَحده من الكهف لينظر إلى الصحراء الجرداء أمامه، مَنظرها مهيب حقًا، السماء صافية أمامك ترى النجوم كأنها تبعد عنك أمتار قليلة، القمر يُهدي التائهين ويُتوج السماء بنوره، ثم سأل نفسه، في أي زمن هُم الآن؟ هل عادوا إلى الماضي؟ أم تَقدموا إلى المستقبل أم كما هم في الحاضر؟

- وما ذنبهم في دفع ثمنًا لشيءٍ لم يختاروه؟
- وما ذنبنا أيضًا أن نُضيع حياتنا ونخسر كُل شيء لأجل القضاء على هذا الكهف؟

نَظروا جميعًا بعضهم إلى بعض، ثم قال رجلٌ منهم:

- أنا سأدخل المكان وحدي وسأحاول حَرقه، يجب أن تكونوا معي.

كان الرجل خائفًا بشدة، حتى أن كلماته كانت مُضطربة، واحد من الأربعة وقعت منه عصاه على الأرض فانطفأت النار، مما أدى إلى ذُعرهم وخوفهم جميعًا، لكنهم حاولوا التماسك وألا يُظهروا ذلك حتى لأنفسهم، وفي تلك اللحظة.. انطفأت النيران فجأة.

حاول (صلاح) التدخل في ذلك الموقف حتى يُنقذ هؤلاء الأفراد الذي لا يعرف من هم، لكن (رشا) مَسكت يده وجعلته يجلس في موضعه حتى يروا ماذا سيحدث.

في جوف الظلام.. انطلقت صيحات من هؤلاء الأربعة وصُراخ شديد كأنهم قد دخلوا الجحيم ذاته، حاول واحد منهم الهرب لكن فجأة صمت صوته، بسبب انطفاء النيران لم يستطيعوا رؤية أي شيء يحدث، لكنهم تأكدوا أن هؤلاء الأفراد قد قُتلوا أو هربوا.

بمُجرد أن مرت تلك اللحظة عليهم، سَمعوا صوتًا لشخص يتحدث بشيء من الهدوء حتى أنهم لم يسمعوا ما قاله بالتحديد، وفي اللحظة التالية انتهى ذلك الصوت، ما الذي حدث للأربعة شيوخ؟ هل ماتوا؟

ظل (صلاح) ومن معه مُنخفضين على الأرض في انتظار أي إشارة للنهوض، لكنهم ظلوا على الأرض لمدة زادت عن الربع ساعة في الظلام.. وفي الصحراء، يكادوا ألا يروا أنفسهم.

نهض (صلاح) من موضعه بهدوء شديد يتحسس الطريق ويسير على مهل حتى لا يتعثر، حاول (علي) منعه من القيام بذلك لكنه أصر.. اقترب من الكهف فوجد أن الأربعة أشخاص قد قُتلوا شر قتلة، ودماءهم تلطخت برمال الصحراء، عدا واحد منهم فقط كان يحاول أن يزحف أرضًا حتى يبتعد عن الكهف، كان الشيخ يبكي ويحاول أن يبتعد عن القتل بشتى الطرق، لكن بمُجرد أن دقق (صلاح) النظر وَجد أن الشيخ قَد قُطعت قدماه ودماءهما يَسيل بغزارة حتى أنه قد يموت بسبب ذلك النزيف.

اقترب (صلاح) من الشيخ فوجده يبكي، فقام بالصياح في أصدقائه حتى يُحاولوا إنقاذ ذلك الشيخ، انخفض (صلاح) على الأرض حتى يُعالجه لكنه لم يكن يتوقف عن الزحف بعيدًا.

أتى الجميع من بعيد حتى يُحاولوا حماية الرجل لكنه كان يبتعد، نَظر (صلاح) له وهو يُربت على كتفه:

ـ أنا لست ضدك، سوف أحميك.

لكن الشيخ يبتعد أكثر وأكثر، والبكاء يزداد:

ـ لقد رأيته، رأيته.

قالها وهو يبكي والدماء لازالت في ازدياد:

- لقد قتلنا جميعًا، وهمس في أذني.. سَمعت صـ.....

توقف الشيخ عن الزحف، بل توقف قلب الشيخ من فرط الصدمة ومات موضعه، نظر (صلاح) لهم وهو خائف من هذا الغريب الذي يتحدث عنه، نهض (صلاح) من الأرض ثم قال لهم:

- يجب أن ندخل الكهف.

كانت الجُثث مُترامية على الأرض في مَنظرٍ مهيب يود إيصال رسالة ما.. رسالة لم يفهمها أحد منهم وربما لن يفهموها أبدًا، الرجل قُطعت قدماه وأُلقيت على مقربة منه، من هذا الغريب الذي ظهر من العدم ليقوم بكل هذا؟

نظر (حاتم) لهم:

- يجب أن نعود إلى الكهف كما قال (صلاح).

خافت (رشا) أكثر، فقالت لهم بغضب:

- ألا تفهموا؟ ذلك المكان لعنة ونحن أُصبنا بها! ألا تروا هذا المنظر؟ هؤلاء الرجال الذين قُتلوا في لمح البصر!

- أنا لن أعودَ إلى الداخل.

قالها (علي) بإصرار ثم ابتعد عن الكهف ولحقته (لارا) مُسرعة، وقال (حاتم) بصوتٍ عالٍ:

- إلى أين ستذهب إذًا؟

لم يَرد (علي)، كانت خطواته طويلة لذا حاولت (لارا) اللحاق به وفشلت.. فقامت بالصياح فيه:

ـ اهدأ قليلًا، اهدأ أرجوك.

توقف ثم نظر لها بغضب شديد:

ـ أنا لن أتحمل أن يتم قتلي في لحظة مثل هؤلاء البشر.

في تلك اللحظة حدث ما لم يتوقعه أحد، سَمعوا جميعًا صوتَ نباح لكلب يأتي من بعيد، الصوت يقترب بشدة، نظرت (رشا) إلى الناحية التي سَمعت فيها صوت الكلب، حتى أن وصل الكلب أمامها وكان مُسالمًا تمامًا، لم يقم بأي رد فعل عدواني فابتسمت (رشا) له، لكن بمُجرد أن دققت النظر.. فُزعت وعادت إلى الخلف حتى سقطت على الأرض وهي تصرخ:

ـ هذا الكلب، هذا الكلب هو ما رأيناه قُبيل دخولنا الصحراء، إنه هو..

اقترب الكلب منهم جميعًا وهو يلعب معهم بود، حينها أدركوا أن اللعنة بدأت تَحل عليهم

للمرة الأولى.

"لا تنس.. فكُلما ظننت أنك اقتربت من النهاية، وكلما اقتنعت أن اللغز أوشك على الاكتمال وحَله على بُعد خطوات منك، كُن على يقين أنك لن تحل هذا اللغز أبدًا، صدقني يا صديقي، لن تحله أبدًا!"

دَخلوا الكَهف وقد ازداد عددهم بمُجرد أن دخل الكلب معهم، اقتنعوا أن رحيلهم عن الكهف بات مُستحيلًا، وأن الهروب ليس بحل جذري لإنهاء تلك المُشكلة. عادوا إلى كهفهم في انتظار أي إشارة أخرى، إشارة لحدث آخر قد يُنهي حياتهم أو يُكملها، فالمجهول ليس بشيء سيئ، الأسوأ هو انتظاره.

كأنك قد دَخلت في دوامة لا نهاية لها.

مرت ثلاث ليالٍ والوضع يزداد سوءًا بطريقة لم يتخيلها أحد منهم، لم يعودوا مرة أخرى إلى حاضرهم، فجثث الأربعة شيوخ على الأرض مُعلنة هزيمة فادحة أمام انتصار الكهف، ذلك الكهف الذي لا يَفهم أحد ما سره، لكن كانوا على علم بأنهم سيعرفون هذا السر في الأيام المُقبلة.

نَظر (صلاح) إلى الجُثث المترامية أمام الكهف واعترته حسرة لاذعة، كان بإمكانه إنقاذ هذا الرجل على الأقل حتى يصل إلى أي معلومة تُخبره لمَ هو هُنا؟ لماذا يتمسك الكهف بهم لتلك الدرجة؟

- يجب أن نُفتش في ملابسهم عن أي شيء، من الممكن أن نجد معلومة تقودنا لمعرفة سر ما.

قالها (صلاح) والألم النفسي يتلاعب به، وافقه (حاتم) فنهضا هما الاثنان وخرجا من الكهف، وَجد (صلاح) الجُثث مقتولة بعناية شديدة، من قَتلهم عَرف الموضع الصحيح للقتل السليم، من ذُبحت رأسه لكن الرأس لازالت على الجسد، ومن قُطعت قدماه كهذا الشيخ الذي رفض الحديث معهم، ومن فُقأت عيناه وغُرس سيف في قلبه. كان القتل – رغم سُرعته الفائقة – دقيقًا جدًا، حتى أن (صلاح) ابتسم وأيقن أن ما يتعاملون معه ليس بشيء طبيعي.

نظر إلى الجُثة الخاصة بالشيخ الذي قُطعَت قدميه، دَب (صلاح) يده في ملابسه حتى يكتشف أي شيء، فوجد بالفعل وَرقة كُتب عليها بحبرٍ أسود:

" أيًا من كُنت، لقد أهداك الله لجثماني حتى تُخبر أهلي أنني قُتلت وأنا أحاربه، اسمي مُحمد بن يعقوب بن الفراس، هذا عهد بيني وبينك.. والله وَحده شاهد على هذا العهد، ادع لي بالرحمة".

ابتسم (صلاح) وهو يشعر بلذة الانتصار، لقد وَجد ما جعله يقترب من اللغز، من معرفة أطراف اللغز على الأقل، نَظر إلى حاتم وأعطاه الورقة حتى يقرأها، فابتسم (حاتم) أيضًا وعلى وجهه ارتسمت علامات الانتصار، على الرغم من أنهم لم يستطيعوا حل أي شيء، إلا أنهم على الأقل عَرفوا اسم واحد من هؤلاء الشيوخ.

"مُحمد بن يعقوب بن الفراس"، اسم له هيبة كتلك الجُثة الخاصة به، سأل (صلاح) ذاته من قد يكون هذا الرجل؟ ما الذي فعله حتى يكون على علم بمصيره وأنه قد يُقتل حتى يَحرق هذا

المكان؟ من الصعب أن تقوم بشيء وأنت على علم بمصيرك ونهايتك، والأصعب أن يكون هذا المصير هو الموت المُحتم.

"مُحمَد بن يعقوب" كان يعلم أن مصيره الموت، لكن هل كان يعلم من معه أن مصيرهم الموت أيضًا؟ بمُجرد أن نظر (صلاح) إلى جُثة الشيخ عَلم أن الأمر لن يكون بتلك السهولة التي اعتقدوها.

- يجب أن نعد إلى الكهف ونخبرهم بما رأيناه.

قالها (صلاح) بنبرة هادئة حتى لا يسمعه من بالكهف، فالتفت (حاتم) له:

- أنا لا أظن ذلك.
- لِمَ؟
- إنهم في مرحلة رُعب حقيقي، انظر على وجوههم.. تلك الوجوه لن تعودَ مرة أخرى كما كانت.
- هل ترى أن نُخبئ تلك المعلومة حتى يهدأوا قليلًا؟
- لا يوجد سبيلًا غير ذلك يا (صلاح)، كما أن الإنسانية تقول ذلك.
- بغض النظر عن الإنسانية يا (حاتم)؛ لأن ما يحدث لنا لا يمتّ للإنسانية بصلة، لكن وجهة نظرك صحيحة.
- يجب أن نُفكر بعمق في هذا الأمر.

في الوقت ذاته، داخل الكهف جلست (رشا) وأمامها كان الكلب على الحصيرة مُمددًا جسده، نَظرت (رشا) له ووضعت يدها عليه ثم ابتسمت وقالت:

ـ أنا لا أعلم لماذا أحببتك.

وكأن الكلب يعلم أن الحديث موجه إليه، نَظر لـ(رشا) بود عليقي، فاستطردت حديثها:

ـ من المُمكن أن تكون أنت اللعنة الحقيقية، لقد ظهرت في وقتٍ غريب.. لكني أرى الحُب ينبض من عينيك كأنك تعرفني أو كُنت أعرفك أنا.

كان (علي) و (لارا) ينظران لها وهي تتحدث مع الكلب، كأنها تتحدث مع إنسان وتنتظر أن يُجاوبها على حديثها، أردفت:

ـ أتعلم! لم يُحبني أحد يا صديقي؛ لذا أنظر في عينيك وأجد الحُب بهما، أشعر بالضعف، أشعر بأنني لازلت في العاشرة من عُمري.

نَظر لها الكلب ثم وَضع رأسه على حجرها، في تلك اللحظة لمعت عينا (رشا):

ـ أنا لا أعرف كيف قَتلت هذا الرجل، كيف تجرأ قلبي وقُمت بفعل هذا، صدقني أنا لست سيئة بتلك الدرجة.. لكني لا أعلم لماذا وُضعت في هذا الابتلاء.

شعرت (رشا) بأن الأرض تلتف من حولها، الكهف يتحرك كأن زلزالًا يَطرأ المكان، بدأت عيناها تُغلق وتُفتح بصعوبة ودون إرادة كاملة منها لكنها حاولت تجاهل ما يحدث لها، فنظر (علي) لها بتخوف:

ـ (رشا)، ماذا يحدث؟

حاولت الابتسام، لكنها قبل أن تبتسم قد أغشي عليها بالفعل. بدأ نباح الكلب يزداد بمُجرد أن سقطت رأسها على الأرض، انتفض (علي) و (لارا) مَذعورَين، بدأ (علي) بالصراخ فيها ليحاول إفاقتها. سمع (صلاح) صوت الصراخ فجاء مُسرعًا حتى يرى ما حدث داخل الكهف.

قال (علي) له ما حدث، فتعجّل (صلاح) وحاول أن يجعلها تستفيق لكن بلا فائدة، قال لـ(لارا) بتعجل:

- افحصي ملابسها من الداخل، قد نجد دواءً خاص بها.

وَضعت (لارا) يدها في جيوبها الأمامية وجيوبها الموجودة بداخل سترتها، فوجدت بالفعل حقيبة صغيرة بداخل سُترتها لونها أسود مُغلفة بعناية حتى لا يحدث لها شيء، فَتحت الحقيبة فوجدت فيها حُقنة غريبة الشَكل، نَظر (صلاح) للحُقنة فاصفرّ لونه وشعر بحُزن حقيقي..ثم قال لهم:

- إنها تَمر بغيبوبة سُكر.

كان (صلاح) على غير دراية بمدى مستوى السُكر، هل هو عال أم مُنخفض؟ ما سيفعله قد يؤثر عليها، من الممكن إذا أعطى لها الحُقنة ومستوى السُكر لا يحتاجها.. قد تموت (رشا) في الحال.

تلك اللحظات هي الأسوأ، القرارات أمامك مُتعددة وحياة شخص ما بين يديك، ما الذي يُمكن فعله؟ نظر (صلاح) إليها بخوف حقيقي وقد اتخذ قراره، أخرج الحُقنة من الحقيبة ثم نظر لها:

- سامحيني، أنا أحاول إنقاذك.

اقتحم (حاتم) الكهف بمُجرد أن رأى أن (صلاح) سيُعطيها الحقنة، نظر له وقال بصوتٍ عال:

- انتظر، انتظر.

كان العرق يتصبب من وجه (صلاح)، أعصابهم قد تدمرت تمامًا، نَظر (حاتم) له وقال:

- لا تُعطيها شيء، إنها ليست غيبوبة سُكر، ستستيقظ بعد دقائق من الآن.

لم يُصدق (صلاح) كلامه، لكن جاء في ذهنه ما قاله (حاتم) قبل مجيء الشُرطة وأن هُناك شيء سيئ سيحدث، وبالفعل حدث وجاءت الشرطة للكهف وقُتلوا جميعًا:

- ضع ثقتك بي، (رشا) لن تموت اليوم.
- وماذا إن ماتت يا (حاتم)؟
- لن تموت يا (صلاح)، صدقني لن تموت.
- إنها إنسانة بين الحياة والموت، هل تود مني أن أصدق كلماتك تلك وأتركها فقط لتنبؤك؟ ماذا إن أخطأ تلك المرة؟

شعر (حاتم) بالخوف من كلمات (صلاح)، الأمر ليس سهلًا عليهم جميعًا، قد لا يَصدق تنبؤه فعلًا وتموت بسببه، وفي الوقت ذاته قد يكون تنبؤه صادقًا وإذا أعطى (صلاح) لها الحقنة ستموت؛ لذا تحتم أن يَخرج الأمر من أيديهم إلى يدٍ أخرى:

- أنا سأكون مع (حاتم) في هذا، إذا ماتت لن يكون ذنبك يا (صلاح) أو ذنب (حاتم).

نَظر (صلاح) بخوف إليها، وكان صوت الكلب يَشق سكون الليل لكنه اقترب منها ووضع رأسه على معدتها وأخذ يتمسح بها، نَظر (حاتم) لـ(صلاح):

- ثق بي، وإذا ماتت سأقتل نفسي أمامكم جميعًا، أقسم أنني لا أكذب.

ابتعد (صلاح) عنها ثم نهض من موضعه وخَرج خارج الكهف تمامًا.. وظلت (لارا) تضع يدها على رأس (رشا)، على الرغم من أن (رشا) كانت أقلهم في الحديث والحركة، إلا أنها كانت أكثرهم هدوءًا وثباتًا، ولحظة انفجارها العاطفي التي سبقت إغماءها لم تتكرر كثيرًا، لذا كان الخوف يحيطهم من أن يخسروا فردًا منهم، فهم لا يودون أن يموت أحد أبدًا.

ظلت (رشا) فاقدة للوعي ومرت عدة دقائق دون أي فائدة، اطمأنت (لارا) على نبضها فوجدت أنها لازالت على قيد الحياة، ظهر القلق جليًا على وَجه (حاتم) حينما أدرك أنها قد تموت بسبب كلمته، لكنه لا يعلم.. جاءته ومضات وأصوات تُخبره أنها لن تموت، تلك الومضات تأتيه من حين لآخر، لكنه لم يتمنَّ أن تصدق تلك الومضات إلا الآن.

وقف (صلاح) أمام الكهف ينظر إلى الصحراء وعينيه قد اغرورقت بدموعٍ واهية، في تلك اللحظة خرج له (علي) ووقف

بتواره، لم يلحظ أن (صلاح) يبكي لكنه شعر به.. شعر بمدى الحزن الذي يَمر به.

ـ أنا لا أعرفها، لكني أشعر بأنها لن تنجو من هذه الغيبوبة.

نظر (علي) إليه فوجده يبكي بحرقة، لم يعرف ماذا يقول له، لم يعرف كيف يُهدئه لأنه أيضًا يشعر بحُزن عميق مما يحدث، نَظر له ثم أخبره:

ـ ستكن بخير يا صديقي.

وضع يده على كتفه وربت عليه، كانت تلك اللحظات بالنسبة لـ(علي) هي الأهم، فهو لم يصدق أن يتحول ذلك الشخص بتلك السرعة، في الأمس قاما بإحداث شغب وضربا بعضهما بشدة، حتى أن (علي) ظن أن (صلاح) ليس بشخصٍ سوي وأنه سيكون المنبوذ بينهم، لكن ما يفعله الآن يدل على طيبةً قلبه التي لم يرَها أحد فيه.

كان يمسح دموعه جاهدًا ألا يراها أحد، هو لا يعرفها ولا يعلم أيضًا لماذا يبكي بهذه الحُرقة، لكنه أدرك أن ما يحدث الآن هو تفريغ لطاقة سلبية غرق بها ولم ينج، هو لا يبكي عليها فقط، بل يبكي على ما يحدث له ولهم جميعًا.

نظر لـ(علي) ثم قال له:

ـ أنا آسف على ما اقترفته.

ـ لا تتأسف على ذلك، لقد نلت ما تستحقه.

قالها بابتسامة فبادله (صلاح) الابتسام، فأردف:

ـ امسح دموعك يا رجل، لا يوجد رجالًا تبكي.

مَسح (صلاح) دموعه كما قيل له.

وفي تلك الأثناء أطلقت (لارا) صرخة مُدوية، صائحة:

- لقد فتحت عينيها، فتحت عينيها.

دَخل (صلاح) مُهرولًا ناحيتها وتبعه (علي)، نظروا لها فوجدوها تَفتح عينيها ببطء، اقترب (صلاح) منها ثم تحدث بعجلة:

- بماذا تشعرين؟!

لم تنطق لكنها هزت رأسها بالنفي، لم يفهم معنى ما تُشير إليه فأخبرها:

- سأسألكِ وتهزي رأسك بالنفي أو الإيجاب، اتفقنا؟

حركت عيناها بهدوء، فسألها:

- هل أخذتِ حُقنة الأنسولين منذ أن جئتِ الكهف؟

هزت رأسها نافية، ثم تحدثت:

- هل فاتني الكثير؟

ضَحك (علي) لسعادته أنها عادت مرة أخرى لوعيها، وظل الكلب يقترب منها ويضع رأسه على رأسها، يبتسم (صلاح) ثم يمسك يدها:

- لقد فاتنا الكثير بغيابك.

ابتسمت (رشا) رغم تعبها، ظل مُمسكًا بيدها وبمجرد أن شعر بغرابة الموقف أبعد يده عنها، هو لا يحبها.. أو يُحبها، كيف يُحبها وهو لم يرها إلا مُنذ أيام قليلة؟ منذ فترة لا تتعدى الأسبوع حتى؟ وكيف للحب أن يصل إلى قلبه رغم ما يمر به من خوف ووحدة؟

حاول تجاهل تلك المشاعر لأنه يراها غير مُهمة الأن.

- يجب أن تأخذي الجُرعة حتى لا تحدث تلك الغيبوبة مرة أخرى.

أومأت رأسها بالإيجاب، فنظر (صلاح) إلى (حاتم) الذي يقف بعيدًا عنهم ثم اقترب منه وعانقه دون أي مقدمات، ابتسم (حاتم) بصدق كأنه كان يحتاج لتلك الدَّفعة منهم:

- أشكرك يا رَجل.

أطرق (حاتم) رأسه أرضًا:

- أنت من يَجب شُكره صدقني، أنا لم أفعل شيء، كُلها ومضات تُجيئني من الحين للآخر.

نَظرت (لارا) إليه وهو يتحدث، لم تعلم لماذا تبتسم بمُجرد أن تنظر إليه.. على الرغم من أنها في مُقتبل العقد الثالث من عُمرها إلا أن مشاعرها لازالت بِكرًا، لم تُحب أحدًا ولم يُحبها أحد، ينظر لها الجميع على أنها عاهرة يتم تأجيرها بالأموال، لكنها لم تعد كذلك الآن.على الرغم من أن هذا المكان قد يكون أسوأ من الجحيم ذاته إلا أنه جعلها تُدرك المعنى الحقيقي للحياة، المعنى الحقيقي لعالم لم تكن جُزءًا منه ولم تنتمي إليه.

لَمحها (حاتم) وهي تختلس النظرات إليه، كانت تعلم أنها لا تُحبه.. هي فقط تراه البطل الحقيقي، الأعباء كُلها مُسلطة عليه؛ لذا تُحاول أن تُخفف هذه الأعباء وتُسقطها من على كاهله حتى يستطيع مواصلة العيش.

لم تُغير اتجاهات نظراتها، تنظر له بودٍ حقيقي فيبادلها هو الابتسام والنظرات. بدا لهم أن ذلك الشعور هو ما يجعلهم قادرين على مواصلة الحياة برغم ما فيها من متاعب ومشقات تُقسم ظهر البعير.. الحُب! هو الشعور الوحيد الذي لا يجب أن يكون في هذا المكان.

نظرت (رشا) إلى كلبها، ثم قالت له:

- سأطلق عليه (هاتشي).

سمع (صلاح) الاسم، فابتسم:

- أتعرفين ذلك الفيلم؟

- وكيف لا؟ إنه أعظم ما رأيت في حياتي.

كانت تقول تلك الكلمات بسعادة رغم ما تشعر به من ألم داخلي، جلس (حاتم) على الحصيرة ومعه الباقين:

- أخبِروني قصته، نحن لا نملك أكثر من الوقت هنا.

ابتسم (صلاح) ونظر إليها، فقامت هي بالاعتدال في نومتها حتى تستطيع مجاراتهم في الحديث:

- كان هُناك كَلب يُدعى (هاتشي)، وَجده رجل في الشارع صُدفةً فرباه عنده، كان الكلب مُتعلقًا بصاحبه تعلقًا شديدًا حتى أن صاحبه هذا كان يذهب كُل يوم إلى مدينة أخرى بالقطار.. و(هاتشي) يذهب معه يوميًا إلى المحطة، يرى صاحبه عندما يستقل القطار ويظل متواجدًا في المحطة إلى أن يعود صاحبه في الليل، ينتظره في أشد الأوقات

حرارة وأسقع الليالي برودة، حتى أن كُل من في محطة القطار عَرفوا (هاتشي).

تحولت ملامحها إلى حُزن دفين بمُجرد أن استطردت حديثها:

- ظل على هذا الحال لأعوام تقريبًا، حتى ذهب صاحبه في يوم إلى القطار وقام (هاتشي) بتوصيله كالعادة، لكن صاحبه لم يعُد.. لقد مات في عمله، ظل (هاتشي) مُنتظرًا صاحبه في محطة القطار، حاول الكثير أن يُبعده عن المحطة لكن (هاتشي) لم يذهب مع أحد، وظل على هذا الحال لمدة يوم.. شهر، انتظر صاحبه في محطة القطار لمدة عشر سنوات كاملة حتى مات في المحطة.

ابتسم (حاتم) بحُزن ونظر إلى الكلب (هاتشي)، لم يكن يُحب الكلاب يومًا، حتى أنه لا يُحب ذلك الكلب لكنه يحاول التكيف معه. بمجرد أن انتهت (رشا) من حكايتها وجدت أن (هاتشي) قد نام بجوارها ويضع يده على معدتها كأنه يعانقها أثناء نومه.

- أنا لا أعلم لماذا أحببته بهذا القدر.

ابتسمت (رشا) له ثم استطردت:

- أنا أود النوم، سأقوم بأخذ الجُرعة وأنام، أشكركم على كُل ما فعلتوه معي.

في صبيحة اليوم الثالث لهم في الكهف، عادوا مرة أخرى إلى حاضرهم، 23 نوفمبر 2017، التاريخ لم يكن مُميز بالنسبة لهم، في الحقيقة هم ليسوا منشغلين إلا بأن يظلوا في أمان وابتعاد تام عن الخطر.

عودتهم مرة أخرى إلى حاضرهم أصبحت تُثير في أنفسهم الهلع، نظرًا لأن الشرطة قد تُفاجئهم في أي لحظة من اللحظات وتقبض عليهم ثم تَحكم بالقصاص العادل، وبالتأكيد سيكون ذلك القصاص هو الإعدام.

على الرغم من أن الموت يُحيطهم.. يشعرون به، حتى أنهم أصبحوا يشمّون رائحة الموت. قيل في الماضي أن للموت رائحة تنبعث بمُجرد أن يقرب هذا الشخص على الموت. لم يُصدق أحد منهم تلك الجملة، لكن تلك الرائحة أصبحت تُحيطهم، تُداعب أنفاسهم كُل لحظة تَمر عليهم في هذا المكان.

كانوا نائمين داخل الكهف، لم يستيقظ أحد منهم طيلة الفجر حتى أشرقت الشمس، لا يعلمون لِمَ سيطر البرود عليهم جميعًا! الإنسان الطبيعي حينما يرى تلك الأحداث إما أن يَموت هلعًا، أو أن يشت عقله فيصبح مخبولًا. هم لم يقتربوا من حافة الجنون، ولم يمسسهم الموت إلا الليلة الماضية عليهم.

استيقظ (هاتشي) وَحده من النوم، نظر لهم وهم نائمين واقترب من (رشا).. لكنه فجأة التفت ناحية باب الكهف، سَمع (هاتشي) صوتًا بعيدًا جدًا لشخصٍ ما، فقام بإصدار صوتًا عاليًا حتى

استيقظوا، بالفعل انتفضوا من نومهم وظهرت ملامح الغضب على (حاتم) الذي لا يَكره شيئًا في حياته مثلما يَكره الصوت العالي، لكنه يُحاول التماسك، وهدأ تمامًا حينما سمع أن هُناك شخص ما ينادي بصوتٍ عال:

- يا علي، يا علي.

الصوت يصيح بشدة، يشق سكون الصحراء، نَظر (حاتم) لـ(علي) وأخبره أن الصوت يُنادي اسمه، فانتفض (علي) مذعورًا وخائفًا.. لِمَ هو على وجه التحديد!

نَظر إليهم وتوترت ملامحه فانتقل هذا التوتر لهم جميعًا، حاول أن يُطمئن نفسه بأنها قد تكون تهيؤات، أو أن شخصًا شيعيًا يستنجد بـ(علي بن أبي طالب)، كانت تلك الأفكار تُشتت عقله، تُهشم الأجزاء السليمة المتبقية في ذاته، لذا أخذ قراره بأنه سوف يَخرج لمواجهة مصيره أيًا ما كان.

- ألم تأتك تلك الومضات؟

قالها (علي) لـ(حاتم) مُحاولًا الوصول لإجابة، لكنه هز رأسه نافيًا بخيبة أمل، ابتلع (علي) ريقه ثم اتجه ناحية الكهف، صاحت (رشا) فيه وقالت:

- خُذ مُسدس معك، أنتَ لا تَدري شيئًا.

فكّر قليلاً فيما قالته، لكنه أيقن أنها صائبة، نَظر لـ(حاتم) ثم اتخذ مسدسًا من الأرض ووضعه أعلى بنطاله من الخلف، وقال لهم بهدوء وتريث مُصطنع:

- لا أود أن يأتي أحد معي، أُفضل أن أواجه مصيري وَحدي وإذا حدث لي شيء...

ابتسم لهم وأردف بحُزن ظهر على صوته:

- رغم كُل ماحدث، وأنني رأيتكم مُنذ فترة قصيرة جدًا إلا أنني أحببتكم.

ازدادت رائحة الموت، تفاقمت في الكَهف، وتأكد أنه سيموت بمجرد أن يخرج منه. نَظر لهم وهو يودعهم، لا يعلم إن كان سيعود مرة أخرى أم لا، ظهرت عليهم ملامح الحُزن جلية مما جعله يَخرج من الكهف سريعًا حتى لا يتراجع في قراره.

ارتفع الصوت مَرة أخرى، وبمجرد أن ابتعد (علي) عن الكهف وَجد ذلك الرجل الذي يُنادي على اسمه يقترب، الأصعب من أن تواجه مصيرك، هو أن تستمر في مواجهته للنهاية.. ألا تتراجع وأنت على وشك أن تنتهي. كان يقولها (علي) لذاته حتى يُطمئن نفسه، لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة.

اقترب الرجل وهو لازال يُنادي على (علي)، سار حتى وَصل لذلك الرجل فوجده آخر شخص توقع أن يراه في تلك الفترة، كان أخوه (سامح) الذي رتب لهروبه والابتعاد عن كُل ما يحدث.

- علي، لقد وَجدتك يا رَجل.. وَجدتك.

اقترب (سامح) من (علي) وهو يبتسم ويذرف دموعًا غير مُصدقًا لما رأى، أخوه (سامح)! لقد ظن أنه لن يراه مرة أخرى، احتضنه بعمق وقبّل جبينه لعدم مقدرته على التصديق، كانت ملامح

(علي) باردة، لم يُصدق حتى الآن أنه أمام أخيه، حتى أنه صفع نفسه صفعة قوية ليستيقظ إذا كان لازال في الكهف ويَحلم بأخيه.

- أنت لا تعلم ما الذي فعلته حتى أستطيع الوصول إلى مكانك.

ابتسم (علي) وهو يَصطنع السعادة، لا يُصدق أن ما يحدث حقيقي، الشك يناوره حتى في أعماق نفسه، سار (علي) ومعه أخيه الأكبر في طريق العودة من الصحراء إلى طريق بشري صنعه البشر؛ ليرى السيارات مرة أخرى، يستمع إلى صوت الناس ويرى وجوههم، كانت تلك هي الأحلام التي يود (علي) تحقيقها رغم أنه لازال في الصحراء:

- كيف وَصلت لي؟
- ظللت أبحث عنك طيلة الفترة الماضية، الشرطة أخبرتنا أن مكانك مجهول، لكنها توصلت إلى إحداثيات ذلك المكان الذي أرسلها رقمًا مَجهولًا على هاتفك، وبالفعل أرسلت مجموعة من أفراد الشرطة لكنهم لم يعودوا مرة أخرى.

ازدرد (علي) ريقًا، ثم قال بهدوء:

- لم نرى شرطة ولا يحزنون يا أخي.

ضحك أخوه بشدة فتحدث:

- والله أنا كُنت أعلم ذلك، مجموعة لصوص يؤدون واجبهم بكلمات، أسهل ما عندهم أن يقولوا بأننا ذهبنا ولم نجد شيئًا.. إنما تلك المرة، الشرطة ذهبت ولم تعد!

اصطنع (علي) الضحك مرة أخرى، فأردف (سامح):

- لكني قبل أن آتي إليك، ولأن لي أحبابي في الشُرطة، أخبروني بأنهم يُجهزون قوات وحَملة كَبيرة للغاية حتى يأتوا لذلك المكان ويبحثون عنك، يقولون أيضًا أنك لست وحدك هُناك وأن معك أشخاصًا أُرسلت لهم نفس الإحداثيات ومطلوبون للعدالة مثلك تمامًا.. أتعرف عنهم شيء هؤلاء الأشخاص؟

صُدم مما قيل له، لكنه حاول تخطي تلك الصدمة.. الشُرطة ستعود إلى الكهف وستقضي عليهم جميعًا، بمُجرد أن يصلوا إلى الكهف سينتهي كُل شيء ولن يستطيع حاتم ومن معه التصدي للشرطة.

- لا، لم أراهم!

- غريبة، عمومًا لقد جهزت لك مكانًا تحت الأرض لن يعرف طريقه الذباب الأزرق.

على الرغم من أنه كان يعلم أن حكايته مع الكهف والسفر عبر الأزمان والقرون، الدماء التي تُحيطه من كُل الجوانب.. قد انتهت، إلا أنه كان هُناك ما يَجذبه للعودة، ما يجعله يرغب في ألا يَترك ذلك الكهف أبدًا، ثمة شيء في قلبه تعلق به. على الرغم مما رآه فيه ومما

معه إلا أنه لا يود العودة إلى الحياة الطبيعية.

بمُجرد أن طرقت تلك الخواطر عقله، وبعد مسير اقترب من الساعة، وَصل (علي) ومعه أخيه (سامح) إلى شارع تعبر السيارات من فوقه، رأى (علي) الشارع بعد مرور ثلاثة أيام هُم الأصعب في حياته، بمُجرد أن رأى الشارع ورأى أوجه الناس في السيارات، نَسي الكهف ونَسي ما سيحل بأصدقائه بعد مرور دقائق.

اقترب (سامح) من سيارة أجرة وأخبره بعنوان ما، استقل (علي) السيارة وهو ينظر إلى الصحراء يُحاول البحث بعينيه عن الكهف لكنه لا يجد أمامه إلا صحراء جرداء.

بمُجرد أن اختفى (علي) عن الكهف وعن الصحراء كُليًا، بدأت الأنظار تَجوس حول إمكانيتهم في النجاة، التساؤلات في ازدياد، هل (علي) استطاع الهرب من الصحراء؟ أم أن ذلك الرجل الذي كان يصيح باسمه قد قتله؟ مَرت سويعات قليلة ولم يعد مَرة أخرى إلى الكهف، فازداد ظنهم بأنه لن يعودَ مرة أخرى.

نَظرت (رشا) إلى (حاتم) وهي لازالت تنام على الأرض بسبب تَعبها:

ـ كيف لنا مَعرفة أننا في الحاضر الآن؟

كانت تعلم بأن (حاتم) يعرف الإجابة، هذا السؤال لم يَطرق أذهانهم إلا بمُجرد أن وَجهت (رشا) نظرهم إليه، فكّر (حاتم) قليلًا ثم أجابها بتريث:

- لا أعلم، لكن بمُجرد اختفاء الجُثث التي كانت موجودة أمام الكهف، تأكدت من أننا كُل مرة نعود فيها إلى الماضي، نعود مُجددًا إلى الحاضر، ثم الماضي مرة أخرى، ثم الحاضر مرة أخيرة.

لم تقتنع (رشا)، لكنها كانت الإجابة المنطقية الوحيدة ولا يوجد إجابة تُنافيها.. ابتسم (حاتم) لها ثم أبعد وجهه عنهم جميعًا وبدأ العرق يتصبب من رأسه، التوتر يزداد، هو يعلم شيئًا لا يعلمه أحد فيهم وهذا يتضح جليًا على وجهه.

خَرج (حاتم) من الكهف بمُجرد أن بدأ التوتر يَظهر على ملامحه، فوجد حَركة طفيفة على بُعد منهم، حَركة ليست لفردٍ واحد بل لعدة أفراد.. عدة سيارات تقتحم الصحراء بسُرعة، يراها (حاتم) ثم يتأكد حدسه، لقد عادت الشُرطة مرة أخرى.

دَخل الكهف ودون أي مقدمات قال لهم:

- أيها السيدات والسادة، بعد خمس دقائق من الآن، الشُرطة ستأتي وستقبض علينا جميعًا.. لقد عَرفوا مكان الكهف ويجب أن نَركض بعيدًا عنه.

في الوقت ذاته وعلى بُعد ساعة ونصف من الكهف، كان (علي) في السيارة مع أخيه يَرى الشوارع مُجددًا بعد غياب ثلاثة أيام عنها، بعد أن أصبح لا يَرى سوى الصحراء والرمال الذهبية تُحيطه من جميع الجهات، ابتسم (علي) لأنه عرف أن ذلك الكابوس قد انتهى تمامًا ولن يعود مرة أخرى إلى الكهف، ابتسم بصدق وكأنه لم

يشعر بسعادة مثل تلك اللحظة أبدًا:

ـ آه يا أخي لو أخبرتك عما حدث لي في الأيام الماضية.

ابتسم له (سامح) ورَبت على كتفه ثم قال:

ـ سأسمع منك كُل شيء، لكن يجب أن نُخبئك الآن حتى لا تصل الشُرطة لك، كُل الدلائل تقول أنك قتلتها لكني أصدقك، لذا خاطرت بحياتي حتى أجعلك في أمان.

بمُجرد أن قيلت تلك الكلمات توقفت السيارة في شارعٍ ما، قال (سامح) لأخيه:

ـ ستتحرك خلفي، لا تتركني مهما حدث.

نَظر (علي) إلى أخيه فوجده خائفًا.. قد يكون خائفًا أكثر من (علي) ذاته، لذا لم يتحدث بأي كلمة وسار خلف أخيه الأكبر دون أي مُحادثات جانبية، دَخل (سامح) بناية ما في شارع لم يعرفه (علي)، بمُجرد أن دخل البناية وَجد بوابها يتحرك ويقف أمام بوابة البناية كأنه لم يرى (علي) أو حتى (سامح).

نظرًا لأموال (سامح) الطائلة؛ لأنه يمتلك عددًا كبيرًا من توكيلات السيارات والموبيليا، يعمل في أكثر من مجال لكنه يتفوق في بيع السيارات، الاستيراد والتصدير، ولمكانته الهائلة في هذا المجال أصبح توكيل السيارات الخاص به أشهر من نار على علم، وأنه قد يكون الأنجح في هذه المهنة، لذا لم يكن من الصعب أن يقوم (سامح) باستئجار شقة في مكان ما غير مُميز، وفي داخل تلك الشقة التي تعيش بها أسرة ما.. كانت هُناك تلك البوابة الصغيرة

في الأرض والتي تفصل بين الشقة وبين المَخبأ الذي سيختفي فيه (علي) لفترة من الزمن.. أو هكذا هُيئ له.

نَظر (سامح) لتلك الأسرة التي تجلس في الشقة فخَرجوا منها جميعًا في انتظار أن يُنهي (سامح) ما بدأه، اتفق معهم أنه سيعطيهم مبلغ ضخم من المال – على الرغم من أن تلك الشقة شقته وأنهم يستأجرونها منه – مُقابل أن لا ينطق أحد، أن يُغموا أعينهم عن الحقيقة بأن هُناك شخص مَطلوب للعدالة يقطن تحت شقتهم.. تحت أرضهم.

نَزل (سامح) وتَبعه (علي) من السلم الخشبي الذي يفصل بين الشقة وبين المخبأ، كان المخبأ عبارة عن غرفتين وحمام، غُرفة تمتلئ بالطعام الجاهز والسريع، والمياه الغازية وحتى المياه المعدنية وكُل أنواع الأكل، والغُرفة الأخرى بها سَرير وتلفاز و(بلاي ستيشن)، لكن لا يوجد بها أي نوع من أنواع الهواتف المحمولة أو الإنترنت.

ابتسم (علي) بمُجرد أن نظر إلى السرير، ثم قال لـ(سامح):

- أتحتاجني في شيءٍ الآن يا صديقي؟

هز (سامح) رأسه نافيًا حينما عَرف أن أخيه يود النوم، ودون حتى أن يُغير ملابسه أو يَدخل الحمام ليقضي حاجته، ألقى (علي) نفسه على السرير ثم غط في نومٍ عميق.

في ذات الوقت في الصحراء، اقترب رِجال الشُرطة وهم يَنظرون بعضهم إلى بعض، في أيديهم يَحملون أسلحة آلية مُتطورة، يَبدو وأن الشرطة غاضبة بشدة على أبنائها الذين ذهبوا إلى الصحراء في وقتٍ لاحق ولم يعودوا مرة أخرى؛ لذا يظهر ذلك الغضب مُمثلًا في خمس سيارات مُحملة بأقوى الرجال وأكفأهم حتى يقوموا بالقبض على هؤلاء المُجرمين المطلوبين للعدالة.

السيارات كانت تتحرك ببطء نَظرًا لرمال الصحراء، على الرغم من أن تلك السيارات مُخصصة للسير على الصحراء إلا أنهم كانوا يقودون ببطء إذا رأوا أي خيط يدلهم على هؤلاء المُجرمين – من وجهة نظرهم -

اقتربت الشُرطة من الكهف، فتوقفت السيارات بمُجرد أن رأوا الكهف أمامهم. نَزلت قوات الشرطة عدا سائقي السيارات في نظام يُثير الهيبة في الأنفس، وَجهوا أسلحتهم ناحية الكهف وهم يقتربون منه في خطوات واثقة لا تَخشى ذلك الكهف الذي تَحدثت عنه القوات قبل مجيئهم.. وأنه مكانًا خطيرًا لا يعرف أحد سره أو حتى كيفية الوصول إليه، إلا أن تلك الإحداثيات كانت بمثابة طوق النجاة لوصولهم إلى ذلك الشيء الغامض الذي لا يُدرك أحد ماهيته.

بمُجرد أن وَصلت الشُرطة إلى بوابة الكهف الصغيرة، حينها فقط بدأ التوتر يظهر عليهم، كيف لهذا المكان الضيق ذو البوابة الصغيرة والقصيرة أن يثير التوتر في أنفسهم؟ لم يجدوا لذلك السؤال إجابة؛ لذا نظروا إلى بوابة الكهف وقال قائدهم بصوتٍ عال:

- سنعد من واحد إلى ثلاثة، إذا لم تَخرجوا من هذا المكان سنقوم بتفجيره.

لم يَظهر على قائدهم التوتر؛ لذا بدأت القوات في التماسك مرة أخرى، الحماس ازداد في أعينهم. استرق القائد نظرات خلسة إلى الكهف لكنه لم يجد شيئًا واضحًا، لذا قام القائد بالعد:

- واحد...

لم يَجد القائد أي رد؛ لذا ابتعد عن الكهف، ثم أخذ قُنبلة غاز من أحد أفراد القوات الخاصة وقام بالعد مُجددًا:

- اثنان...

في تلك اللحظة، سَمع القائد صوتَ تشويش يَخرج من سيارته التي يوجد بها السائق، صوتُ تشويش قوي، فنظر القائد إلى سيارته ووَجد صوتًا ينبعث منها.. صوتٌ لإنسان لكنه صوت يدب الرعب في الأنفس:

- ما رأيك أن نَعد مُجددًا؟

بمُجرد أن قيلت تلك الجملة، انفجرت السيارة بالسائق الموجود بها، لا يعلم أحد سبب انفجار السيارة لكنهم وجدوا السائق يَخرج منها والنيران تأكل جسده دون رحمة، يَصرخ السائق والنيران قد استولت على جسده بالكامل، بمُجرد أن انفجرت السيارة وبسبب قوة الانفجار، وأن السيارة كانت على مقربة من معظمهم، تَهشم زجاج السيارات المُجاورة ولم تعد صالحة مرة أخرى، حتى أن ثلاثة أشخاص غير السائق قد ماتوا بفعل الانفجار.

كانوا صادقين، مُحقين بشأن ذلك الكه. نَظر القائد بعد أن سقط على الأرض بفعل الانفجار فوجد أن القوات تشعر بالذعر والخوف، ظهر الرعب على ملامحهم كما لم يظهر من قبل.. كيف خرج ذلك الصوت من السيارة؟ كيف انفجرت السيارة أصلًا؟

نَظر القائد إلى الكهف وهو يسعل، صوت الانفجار لازال يتردد في أذنه، فأخبرهم:

ـ ارجعوا، ارجعوا.

بمُجرد أن قال القائد تلك الجملة، هَرول مُعظم رجال الشُرطة بعيدًا عن الكهف وهم مَذعورين، لم يُصدقوا ما حدث للتو أمام أم أعينهم، أما القائد فظل واقفًا، وعلى الرغم من أن الخوف يَنهش قلبه إلا أنه لا يُظهر ذلك أبدًا مهما كانت الظروف، قال حديثه موجهًا إياه إلى الكهف:

ـ سأعود مُجددًا، أيًا من كُنت، سأعود مرة أخرى.

ابتعد رجال الشُرطة عن الكهف، أما القائد فابتعد بهدوء حتى نَظر إلى الجُثث، دقق النظر في جُثة سائقه الخاص فشعر بحزن عميق، كيف لتلك السيارة أن تنفجر بتلك البساطة؟!

ابتعد القائد وهو يَنظر إلى الكهف، كأن نظراته تتوعد بأنه لن يهدأ ولن يتوانى.. ما جعله يعود هو أنه سَمع أن ذلك الكهف ليس بكهف عادي، وأن الحكايات عن هذا الكهف لم تنقطع مُنذ أجداد أجداده، لذا قرر العودة. فكُل مُدراءه أخبروه بأن الذهاب إلى تلك الإحداثيات هو ضرب من الجنون، ومن المستحيل أن يكون

المُجرمين هُناك.

ابتعد القائد عن الكهف، وبمجُرد أن ابتعد تمامًا عنه هو ورجاله، ظهرت (رشا) على بُعد كيلومترات قليلة من الكهف، هي ومن معها لا يعرفون ما حدث لكنهم سمعوا صوتًا لانفجارٍ عظيم زلزل الصحراء.

***

" لم يكن ذلك اليوم كسائر الأيام"..

بمُجرد أن نام (علي) في مخبئه حلّ الليل عليه وهو لا يَدرى ما الذي يَحدث حوله، النوم هو أفضل شعور في الكون بالنسبة له الآن، أن تعلم بأن الحياة غير عادلة.. خَسرت كُل من تعرفهم، الشُرطة تبحث عنك، قد تموت في أي وقت، إلا أنك تَبتعد عن كُل هذا وتنام كما لم تنم من قبل، ذلك هو الشعور الأفضل في الحياة.

لكنه بمُجرد أن أغمض عينيه وبمُجرد أن ابتعد عن دُنياه ومات ميتته الصغرى، كان يعلم أن ما يراه الآن هو حُلم، يعلم أنه سيستيقظ منه بعد دقائق.. لكن لِمَ كان هذا الحلم طويلًا لتلك الدرجة؟!

كان يسير في صحراء مُماثلة للصحراء التي كان بها، يَسير ولا يعلم أين يذهب، نَظر إلى يده فوجد أنه قد حَمل بها سكينًا امتلأت حافته بالدماء، البرد في الصحراء قارس لدرجة لم يتحملها جسده المُغطى بملابس خفيفة للغاية، حتى أن قطرات الدماء كانت تتساقط فتُزيد شعوره بالخوف.

على بُعد أمتار كان الكهف يَخرج منه ضوءًا شديدًا ومتوهج، كأن ذلك الكهف هو الجنة ذاتها، اقترب من الكهف فَوجد أن الكهف يبتعد عنه، كُلما وَجد ذاته على مقربة من الكهف، وجد أن الكهف يبتعد.

كان (علي) يعلم أنه في حُلم، يود الاستيقاظ منه ولا يَعرف كيف، فاستسلم لمصيره وهو يرى كيف أن الأمطار قد حلّت على الصحراء والجو أصبح أكثر برودة، ألقى السكين أرضًا وقرر أن يركض ناحية الكهف ليعلم ما الذي يوجد بداخله.

ـ تعال..

انبعث الصوت من داخل الكهف، صوتٌ أنثوي جعله يشعر بالأمان، هرول تجاه الكهف لكن الكهف لازال يبتعد عنه، هرول أسرع حتى يصل إلى الكهف فوجد أنه لن يستطيع الوصول.. توقف فجأة ثم نظر إلى السماء التي لم تتوقف عن إرسال المَطر على جسده الواهن، في تلك اللحظة فقط.. وَدّ أن يَبتعد عن الكهف، فالكهف لا يود أن يكون (علي) جُزءًا منه.

وجّه (علي) ظهره للكهف فوجد امرأة تَقف على بُعد أمتار منه، امرأة جميلة حقًا لكنه لم يتعرف على وجهها، سَمع الصوت مرة أخرى ينبعث لكنه كان منها:

ـ تعال..

كان شعر المرأة المُتموج يرسى على كتفيها، ترتدي عباءة بيضاء طويلة كأنها شبح.. أو هي شبح بالفعل! لم يدرك (علي) ماهيتها إلا أنه اقترب منها فوجدها زوجته (دُنيا) تَنظر له نظرات واساها الحُزن.

- دُنيا!

نَظرت له لكنها لم تتحدث، ظلت عيناها مُعلقة به ولم تُحرك ساكنًا.. نَظر لها وبدأ يبكي:

- أنا آسف، آسف.

لم تُحرك عينيها من عليه، بدأت الأمطار تَهطل بشدة حتى أن صوت ارتطامها بالرمال أصبح مُزعجًا، نَظرت له وقالت:

- عُد مُجددًا، عُد.

قالتها بنبرة هادئة وأشارت له بإصبعها على شيء يجب أن يراه، نَظر ناحية ما أشارت فوَجد جُثث مُلقاه على الأرض، نَظر لزوجته مرة أخرى لكنه لم يَجدها. وَجد الجُثث بعيدة عنه فهرول حتى وَصل إليها ونَظر إليهم فوجدهم زملائه في الكهف، تلك الجُثة الأولى كانت لـ(رشا) وقد تحول لون وجهها إلى الأزرق الفاتر وفي يديها تمسكت بحقنة الأنسولين الخاصة بها.

أما (لارا) فكانت بجوار (حاتم) وقد تشبع الرمال بدمائهما سويًا، أما (صلاح) فلم يَجد جُثته؛ لأنه بكل بساطة وَجده يقف أمامه وسيف قد شق معدته:

- "خمس ساعات. خمس ساعات."

قالها بوعيد وتهديد، تلك النبرة التي لم يسمع مثلها أبدًا إلا في الأفلام جعلته يستيقظ وقد جن جنونه وشَرد عقله، لقد كانت تلك الرسالة مُوجهة له خصيصًا ليعرف شيئًا واحدًا فقط..

أنهم سيموتوا جميعًا إن لم يَعد مرة أخرى إلى الكهف خلال خمس ساعات.

***

عادوا إلى الكهف بعد أن انطفأ ضوء الشمس واختباءهم لفترة ليست بالقصيرة في الصحراء حتى يطمئنوا أن الشرطة قد ذهبت ولم تعد مُجددًا، نَظروا إلى الجُثة المُتفحمة والثلاث جُثث الموجودين بجوارها بحُزن شديد، وبدأت الألاعيب العقلية تزداد بالنسبة لهم، لكنهم أيقنوا شيئًا واحدًا.. أن ذلك الشيء الذي يفعل كُل هذه الأفعال الماورائية ليس ضدهم.

احترقت السيارة، قُتل ثلاثة أفراد من الشُرطة، كيف حَدث كُل هذا؟! ابتعدت الشُرطة لأن شكوكهم قد تأكدت بأن ذلك المكان ليس طبيعيًا بشتى الطُرق.

دَخلوا الكَهف وهم يشعرون بظمأ شديد، كان الطعام الذي أخذوه من الرجل الغريب في الماضي لازال موجودًا وأيضًا العصائر والمياه، لذا شَربوا وهم في حالة صمت مُرعبة، لا يفهم أحد منهم ماذا يحدث، لكن بمُجرد أن دخلوا الكهف وجلسوا وهدأت عاصفة أفكارهم، قال (صلاح) لثلاثتهم:

- ماذا إن كان هذا هو الجحيم؟! وأننا قُد متنا بالفعل في حياتنا والله يُحاسبنا على ما فعلناه؟

أصدر (حاتم) ضحكة لم تسمعها سوى (رشا)، لكنه استطاع إخفاءها مُسرعًا. نَظرت (رشا) إلى الأخير فوجهت حديثها له:

- لماذا تَضحك؟!

شعر بالخجل، فنظر لها وتحدث:

- لأن الجحيم لا يُوجد به شُرطة، لا يُوجد به سفر عبر الزمن، كما أن الجحيم سيكون أفضل بكثير مما نحن فيه.

- وكيف ترى ذلك؟!

- على الأقل الجحيم حدوده معلومة، نار تأكل في جسدك الضعيف دون أي مقاومة منك.. تتعذب عذابًا جسديًا فقط، لكن هذا المكان لا يُعذبك جسديًا فقط، بل نفسيًا أيضًا.

ابتسم (حاتم) مُجددًا، فاستطرد بسخرية:

- كما أنني لا أذكر كيف مُت؟ هل يُخبرني أحد بذلك؟

رَمقته (لارا) بهدوء، فسألته:

- ما الذي رأيته؟!

عَقد (حاتم) حاجبيه مُتعجبًا من السؤال.. فأوضحت:

- لقد رأيت شيئًا.. لقد عَلمت أن السيارة ستنفجر، كيف؟!

- أنا لم أعلم أن السيارة ستنفجر، أنا فقط عَلمت أن الشرطة قادمة لأنني رأيتهم قادمين.. تلك الومضات لم تجئني اليوم.

- لا، أنت تعرف موضع (علي).

- لا.. أنا لا أعرف يا (لارا)، صدقيني.

صمتت (لارا) في مُحاولة منها لمعرفة أكان صادقًا أم كاذب، إلا أن ملامحه لا تَكذب، نظراته لا تقول سوى الصدق، في تلك اللحظات تأكدت أنه أكثرهم تحملًا للمسؤولية، أكثرهم عُرضة للشك والتكذيب؛ لذا لم تتحدث. فنظرت (رشا) لهم وقالت:

- هذا الكهف ليس ضدنا، إنه معنا ويود منا الوصول لشيء ما.

أومأ الجميع برؤوسهم، كانوا على علم بأن ذلك المكان يحميهم، يبعد عنهم الأذى والضرر.. حتى من الشُرطة التي لا يَقوى أحد على مُحاربتها إلا وخرج مُنهزمًا مَكسور الإرادة، لكن لا يوجد الآن من يفعل شيء دون انتظار مقابل، استطردت (رشا) حديثها:

- وهو لا يفعل معنا ذلك دون مقابل.. لذا السؤال الحقيقي، ما الذي يوده الكهف منا؟

- هذا ليس السؤال الحقيقي.

قالها (صلاح) بفتور:

- السؤال الحقيقي من الذي يفعل هذا؟ من الذي قام بتفجير السيارة ومن الذي يعيدنا بالزمن، من الذي

تحدث معنا في الهاتف ليُخبرنا أن نأتي هُنا؟ تلك هي الأسئلة التي يجب أن نسألها.

- لا، (رشا) على حق.

قالتها (لارا) بثقة، فأوضحت وجهة نظرها:

- تلك الأسئلة قد سبق أوانها، أنت لا يَجب عليك أن تُدقق النظر في الماضي وتَنسى ما يجب أن تفعله في حاضرك، تلك الأسئلة التي تسألها الآن هي الماضي، أما ما تسأله (رشا) هو الحاضر والمستقبل أيضًا، يجب أن نُحاول الوصول إلى إجابة مُقنعة.

كررت (لارا) السؤال، وللمرة الأولى يتضح أنها ليست بالإنسانة الغبية كما هُيئ لهم:

- ما الذي يوده الكهف منا؟ هذا ليس بسؤالٍ سهل، لكن في الوقت ذاته.. نحنُ عُدنا إلى الماضي ولم نجد ما يفيدنا أو له علاقة بنا، كُل ما رأيناه كانت أحداث مبعثرة، شخصيات لا نَذكر حتى اسمها، الكهف يُعيدنا مرة أخرى للماضي لأن هُناك ما يَربطنا به، يودنا المشاهدة بحرص والتركيز في التفاصيل حتى نصل إلى النهاية، إذا عَرفنا إجابة ذلك السؤال فحتمًا سنستطيع حل اللغز بسهولة.

هُنا ضحك (حاتم) بشدة ولم يستطع كتم ضحكته فظهرت وكأنها استهزاء بما قالته (لارا)، لكنه هدأ قليلًا وأوضح وجهة نظره:

- أنا آسف لكن جملتك هذه مُضحكة للغاية.

غضبت (لارا) مما فعله، لكنها هدأت بمُجرد أن سَمعت ما يقصده:

- عندما أشاهد فيلمًا يمتد إلى الساعتين، وبمُجرد أن أدخل في الأجواء المُناسبة للفيلم وأعرف قصته وشخصياته وحكايته.. الأبطال والأعداء، البداية والعقدة، أبدأ في تحليل الفيلم في عقلي، وبمجرد أن أصل إلى مُنتصف الفيلم تحديدًا، أضع قدمًا على الأخرى ثم أخبر ذاتي أنني قد توصلت إلى النهاية.. توقعتها! ثم أنتظر حتى تأتي تلك النهاية لكنها لم تأتِ، بسبب ذكاء المؤلف أو غبائي - أيهما أقرب - أجد أن النهاية الحقيقية للفيلم مُخالفة تمامًا لتوقعاتي، وأشعر بصفعة قوية على وجهي تَجعلني أُصفق، لأنني في الحقيقة يَصعب صفعي.. لكن النهاية جعلتني أشعر بتلك الصفعة.

فَهمت (رشا) المقصد من كلامه لكن (لارا) لم تفهم، لذلك أوضح قائلًا:

- المقصد من كلامي، أنه بمُجرد أن نصل إلى إجابة ذلك السؤال (ما الذي يريده منا الكهف)، سيتولد سؤالًا آخر وهو (كيف سنُنفذ ما يريده منا الكهف)، وبمجرد أن نُحلل الأسئلة وإجاباتها، ونعرف كيفية تحقيق ذلك وننجح بالفعل في تحقيقه ونظن أن النهاية قد اقتربت، سنشعر بنفس الصفعة التي شعرت بها حينما شاهدت

فيلمًا نهايته غير متوقعة، لذا يجب أن نضع في حسباننا أن ما يحدث لنا وما سيحدث، من المؤكد أنه لن يكون متوقعًا لأحدٍ منا.

اقتنع الجميع بتلك الكلمات، وأدركوا مدى قدرة (حاتم) على كسب ثقتهم والتلاعب في الكلام ليقتنعوا به، نظر لهم واستطرد:

- حتى أنا لا أدري لماذا أنا مُميز أكثر منكم، لماذا أرى المستقبل وأستطيع إخباركم بما قد يحدث، حقًا أنا لا أدري. وبمجرد أن أرى شيئًا سأخبركم به كما أفعل على الدوام، لذا لا تجعلوني أشعر بأنني غير مُرحب بي معكم.

نَظر (صلاح) في تلك اللحظة لـ(حاتم)، فأدرك أنه من غير الملائم أن يُخبئ حقيقة ما رآه وحقيقة تلك الورقة التي تحمل اسم (مُحمد بن يعقوب بن الفراس) أكثر من ذلك، لذا نظر لهم وتحدث:

- أنا أود أن أخبركم شيئًا، لقد فتشنا في جُثث الشيوخ الذين ماتوا أمامنا أمس، ووَجدنا ورقة مكتوب عليها اسم شخص ما..

في الوقت ذاته، كان (علي) يَنظر لأخيه (سامح) في المخبأ وعلى وجهه ارتسمت أشد علامات التعس، لقد أُرهق عقله وشت ذهنه لدرجة لم يتخيل أن يصل إليها، نَظر في ساعة المخبأ فوجدها العاشرة والنصف مساءً، أي باقي من الزمن حوالي ثلاث ساعات ونصف، تَحدث مع أخيه بهدوء:

- لقد رأيت حُلمًا قد يغير حياتي للأبد.

- وكيف لحلم أن يغير حياتك يا (علي)، إنه مُجرد حلم!
- لا.. لا يا (سامح) إنه تحذير، إذا لم أعد مرة أخرى إلى الكهف سيموتون يا (سامح).
- مَن؟ مَن يا (علي)؟ هؤلاء المُجرمين الذي أنكرت وجودك معهم!

تضخمت نبرة (سامح) وبدأ الغضب يأخذ حيزًا منه. فَهم (علي) أنه بيّن لأخيه أنه كاذب؛ لذا أطرق رأسه أرضًا وشعر بالخجل، لكن أخيه هدأ قليلًا بعد أن استوعب كلامه، فتحدث:

- كيف سيموتوا؟ الشُرطة قد كانت هُناك في الصب.... انتظر سأتصل بصديق لي ليخبرني بالجديد.

خَرج (سامح) من المخبأ، وظَل (علي) على سريره يَنظر إلى الساعة، مع كُل ثانية يتخطاها عَقرب الساعة يشعر بطبول تُقرع في قلبه، صوت نبضات قلبه يزداد، هل سيموتوا فعلًا بتلك الطريقة إذا لم يعد؟ وماذا إذا ماتوا؟ هو لا يعرفهم حتى ولا يعرف أصلهم، كُلهم أخطأوا مثلما أخطأ؛ لذا يَجب أن يدفعوا الحساب، إذا كان حسابهم هو أن يموتوا فحسابه هو الهرب للأبد، الهرب والموت وجهان لعملة واحدة.. فالهرب يُميت الروح ويُطفئ الأمل، أما الموت.. فهو نهاية كُل شيء، الهرب من حياة بائسة لا يوجد بها أمل حقيقي.

نَظر (علي) لذاته في المرآة المواجهة للسرير فوجد أن ملامحه قد تغيرت، ازدادت بشرته الداكنة سوادًا نظرًا لحرارة الشمس، ثقلت لحيته وارتسمت تحت عينيه خطوطًا سوداء كمُدمن المُخدرات،

حتى أن عينيه أصبحت تُغلق وتُفتح بصعوبة وبطء، كان يعلم أن الموت ليس هو النهاية المُستحقة له.. بل ما هو فيه الآن، فالموت في النهاية هو نهاية، راحة بعد تعب، هدوء بعد صخب.. هو لا يستحق أن يستريح، يستحق أن يموت حيًا كما يحدث فيه الآن.

بمُجرد أن مرت الدقائق وَجد أخيه (سامح) ينزل على الدرج الموجود في المخبأ وقد تبدلت ملامحه وتحولت إلى اللون الأصفر الباهت، نَظر إلى أخيه وأخبره:

- لقد قال لي صديقي من الشرطة ألا أفتح معه هذا الموضوع ثانيةً، وأن الشرطة لن تعودَ مرة أخرى إلى ذلك المكان.

ابتلع ريقه وقال بخوف:

- صديقي هذا لواء وليس مُجرد ضابطًا عاديًا، ما الذي حدث في ذلك المكان حتى يقولوا شيئًا كهذا؟!

كان يعلم (علي) أن الشرطة لن تقبض عليهم؛ لذا ابتسم ابتسامة طفيفة وقال لـ(سامح):

- سأحكي لك كُل ما حدث لي، والمقابل أن تتركني أرحل بعد ساعة من الآن وأن تُصدقني، أقسم بالله كُل ما سأحكيه لك قد حدث معي بالفعل.

بمُجرد أن بدأ في حَكي ما حدث معه في الأيام الماضية، بدأ (سامح) التركيز في كُل تفصيلة يقولها، في كُل نَظرة يرمقها أخيه، سفر عبر الزمن؟ هذا ما كان يراه في الأفلام في عُمر باكر، أشخاصٌ يُقتلون دون سبب وبطريقة لا يراها أحد! هذا ما كان يقرأه

في روايات "أحمد خالد توفيق" كاتبه المُفضل، أشخاص تَنظر إلى شخصٍ ما وتُخبره أنه المُنتظر وأنهم ينتظرون عودته مُنذ زمنٍ بعيد؟! هذا ما كان يسمعه في إذاعة الراديو حينما كان هو الوسيلة الوحيدة لتسليتهم.

لكن (سامح) كان يُصدق أخيه، ليس لأن أخيه يحكيها أو أن أخيه لا يَكذب أبدًا، لكن (سامح) كان يعلم تفاصيل في تلك القصة مُنذ زمن بعيد، مُنذ أن كان طفلًا.

بعد أن انتهى (علي) من حكايته لما حدث له، لم يُصدم (سامح) لما سمع.. لكنه صُدم لأن هذا حدث مع أخيه، أخرج (سامح) سيجارة من جيبه ووضعها بين شفتيه ثم أشعل السيجارة، أخذ نفسًا عميقًا وتحدث معه:

- أتعلم أن هؤلاء الشيوخ الذين ذهبوا للكهف ليلًا وحاولوا حرقه، قصة توارثتها عائلتنا حتى وَصلت لي..!

نَظر (صلاح) لهم بعد أن وَجدهم جميعًا ينظرون إليه، فأخبرهم:

- وجدنا ورقة كُتب عليها اسم شخصٍ ما..

أخرج (صلاح) الورقة من جيبه وأعاد قراءتها عليهم مُجددًا، فارتسمت على ملامحهم البلاهة في أسمى معانيها.

نَظر (سامح) إلى أخيه الذي يحاول أن يفهم ماذا يُقال أمامه:

- أتعلم أن واحدًا ممن حاول حَرق هذا الكهف كان من عائلتنا؟!

كررت (لارا) الاسم وعلى وجهها ارتسمت علامات التعجب، عقدت حاجبيها بقلق وخوف ثم نظرت لـ(صلاح) وقالت:

- كُنت أتحدث مع (علي) أمس وأخبرني باسمه كاملًا.

نَظر (علي) بخوف لأخيه، ابتلع ريقه وتجمدت الدماء في عروقه:

- مُحمد يعقوب الفراس، إنه جدنا الأكبر.

نَظرت (لارا) بقلق ثم انتفضت من مكانها وهي تُكرر:

- (علي) اسمه (علي سعيد الفراس)، هذا ما قاله لي في الأمس ونحن نسير سويًا.. هذه ليست صدفة أليس كذلك؟!

كان (علي) يعلم أن أخيه لن يَكذب، لكن كيف وصلت له تلك الحكاية؟ تلك القصة الشهيرة كما يقول؟! نظرات (سامح) كانت مُريبة لأخيه مما جعله يظن أن أخيه يُكذبه، لكن (سامح) قال له حتى يُطمئنه:

- أنا أعلم أنك لست بكاذب؛ لأن بكل بساطة تلك الحكاية لا يعرفها إلا الأخ الأكبر وأنا أخيك الأكبر، أبيك - رحمه الله - لم يقصها عليك لكنه قصها عليّ أنا فقط؛ لذا أنت لا تعرف تلك الحكاية، أنا أثق في ذلك.

- ولماذا حاول جَدي الأكبر حرق ذلك الكهف؟!

- لا أحد يعلم، ذلك الكهف ملعون يا (علي)، أنا لم أكن أعلم أنك ذهبت لنفس الكهف الذي حاول جَدي حرقه. والآن بعد أن عرفت ذلك فأنت لن تعود مرة أخرى إليه.

خفق قلب (علي)، كيف وَصلت لهم تلك القصة و (مُحمد بن يعقوب بن الفراس) هذا - أو جده الأكبر - قد قُتل أمامه شر قتلة؟ يبدو وأن هُناك من حكاها لهم، لكن الأصعب الآن هو أنه يجب عليه العودة مُجددًا إلى الكهف، فالأمر أصبح واضحًا له الآن. بالتأكيد الأربعة شيوخ الذين قُتلوا أمام أعينهم ليسوا إلا أجدادهم، لم يذهبوا إلى ذلك المكان صُدفةً!

نَظر (علي) لأخيه وقال بتودد:

- أنا يجب أن أذهب يا أخي، سيُقتلون صدقني.
- لن أجعلك تذهب، ذهابك يعني أنك ستلقي حتفك هُناك، أنت في صحراء كيف ستأكل وتشرب؟!
- لقد أخبرتك أننا نمتلك الطعام الكافي بسبب الرجل الذي أعطانا إياه.
- هذا الكهف ملعون.
- وكيف لك أن تعرف ذلك؟
- الشُرطة حتى لم تستطع القضاء على الكهف!
- اجعلني أذهب، أنا أود الذهاب حتى أنقذهم.على الأقل سأجعلهم يأتون معي هُنا.
- ومُنذ مَتى وأنت طيب القلب بهذه الطريقة؟!

- أنا لست طيب القلب، لكنهم سيقتلون بطريقة سيئة إذا لم أعد.

- لن تعودَ للكهف، واعتبره أمرًا يا (علي).

تحولت نظرات (علي) لغضب شديد، ثم نهض من موضعه وأخبر أخيه:

- يؤسفني أنني سأعترض على هذا الأمر، أنا لا أنتمي لهذا العالم.. هذا الكهف يأويني أكثر من هُنا.

نَهض (سامح) هو الآخر ووقف أمامه وعيناه تلمعان من شدة الغضب:

- إذًا أخبرني كيف ستعترض.

شعر (علي) بأن أخيه الأكبر يُسيطر على الموقف أكثر منه، لقد كان مُحقًا.. العودة مرة أخرى إلى الكهف تعني أنه سيموت لا محالة، لكن شعوره الضعيف بأن عودته ستحميهم من الموت هي ما تجعله يود العودة.

في الحقيقة لم يكن ذلك الشعور فقط هو ما يدفعه للعودة، إنما هو أيضًا وَجد ذاته هُناك في ذلك الكهف، الحياة هُناك بها مُتعة أكثر من كونها مُملة في مخبأ ستصل الشرطة حتمًا إليه في يوم ما، لذا كان (علي) يُدرك أنه مهما كان ذلك الكهف ملعونًا، إلا أنه يقوى على تخبئتهم فيه للأبد.. حتى ولو عاد بهم إلى الماضي وتركهم هُناك.

- الشرطة ستصل إلى هذا المكان يومًا ما يا (سامح)، دعني أذهب.
- لن تذهب، وإذا اضطررت لأن أُكبلك في ذلك المخبأ وأُطعمك بيدي سأقوم بذلك دون تردد، اجلس واتركهم يذهبون إلى مصيرهم كما ستذهب أنت إلى مصيرك.

نَظر(علي) لأخيه وقال:

- لن تستطيع فعل ذلك؛ لأنك تعلم أنهم سيموتون يا (سامح).

لم يفهم ما المقصود، لذا عقد حاجبيه وانتظر التفسير:

- هؤلاء الأشخاص كما أخطأوا.. أنا أخطأت أيضًا، أنت تفعل ذلك لأنك تود معرفة الحقيقة، إذا أخبرتك بالحقيقة ستدعني أذهب لهم؟!

فكَر (سامح) بروية ثم أومأ برأسه إيجابًا، أخذ أخيه نفسًا عميقًا ثم أردف:

- أنا قتلتها يا (سامح)، أنا قتلتها.

ضَحك (سامح) بسخرية:

- أتظن أنني لا أعلم؟ لازلت تظنني مثلك!
- لكنها خانتني، أقسم لك لقد خانتني ونامت مع شخص ما غيري.
- أعلم، لقد رأيت الكاميرات ومسحت ما بها حتى لا تراها أنت.

- إنها تستحق مني ذلك، أنا لم أُخطئ.
- ولِمَ تظن أنني أساعدك الآن؟ لقد قتلت (دُنيا) لأنها خانتك لكنك تَشعر بالذنب لأنك لازلت تُحبها.
- أشعر بالأسف لأنني قتلتها، لكني لا أحبها. لقد كسرت قلبي يا أخي! لقد فعلتُ لها كُل شيء ومع ذلك خانتني.
- أنت بك أخطاء لا تُغتفر.
- لكن هل أستحق الخيانة؟
- لا، إطلاقًا..
- إذًا لماذا خانتني؟! لقد كُنت أراها تَعمل عِندك في وكالة السيارات وأحببتها بصدق، أحببتها حتى أنني تحديت الكُل بمن فيهم أنت حتى أتزوجها، لقد قُمت بصنع المُعجزات حتى أتزوجها.. وفي النهاية خانتني!

قالها (علي) بنبرة شقها الحُزن، مشاعر مُضطربة ومُتخبطة تُلاحقه، الخوف، الاشتياق، التوتر، الرُعب، الحُب، لذا قال لأخيه وقد جلس على طرف السرير:

- لقد تأكدت يا (سامح) أن الغبي هو من يقول أن الحب هو من يُحرك الساكن، يُنير الظلام، يُحادث الأصم ويُجادل الأعمى، الحُب قادر على تحطيمنا تمامًا.. قادر على أن يجعلنا ضعفاء لأقصى حد، أن نصبح مثل الشموع عندما تنطفئ ولا يعد ضوءها مرغوبًا.

على الرغم من تلك المشاعر التي يَشعر بها، أنه استطاع الكَذب على نفسه حتى حينما قال للجميع أنه لم يقتلها وكان هو قاتلها.. إلا انه لازال خائفًا ومرعوبًا لما قد يحدث لأصدقائه. نَظر لأخيه وقال له:

ـ لقد أخبرتك الحقيقة، أرجوك دعني أذهب لهم.

نَظر (سامح) له وأومأ برأسه إيجابًا.

***

اليوم الرابع
(ليلة مع الموت)

عند انتصاف الليل، جَلس (صلاح) أمام الكهف واضعًا يده على رأسه، يُفكر فيما حَدث بالداخل وأن الجد الأكبر لـ(علي) كان من هؤلاء الشيوخ الذين قُتلوا أمام أعينهم، بمُجرد أن بدأ في التفكير.. بدأت الأسئلة تتهاوى على عقله دون رَحمة، كأن ما حدث لهم كان مُجرد بداية وأن الأحداث التي رأوها في الماضي ترتبط بحاضرهم.. أو هكذا ظن.

الأجواء في الصحراء كانت غريبة كأنها تُخبرهم أن ما تبقى أقل بكثيرٍ مما فات.. لاحظ أن (هاتشي) جَلس بجواره وهو ينظر له مُتأملًا في ملامحه، سأل نفسه.. كيف جاء هذا الكلب إلى هُنا؟ هل جاء من الماضي أو من المستقبل؟ فتلك الصحراء ليست بصحراء عادية، تُحاول أن تَمد بصرك حتى ترى نهاية الرمال لكنك لا ترى أبدًا سوى ظلام.

نظر إلى الكهف فوجدهم نائمين بالداخل وهو لا يقوى على النوم، فالشرطة قد تأتي مرة أخرى. لكن ثمة شيء ما بداخله يُخبره أن هذا الكهف يحميهم من كُل خطر، يود منهم شيئًا ما ويُمكنه أن يقوموا بذلك الشيء – حسب ما توصلوا له – لن يحميهم الكهف مُجددًا. ما أسوأ أن تتعلق حياتك باتخاذ قرارًا وحيدًا قَد يُغيرها بأكملها، واستمرارهم في ذلك الكهف وعدم هربهم يعني أنهم اتخذوا قرارهم باستمرارية المواجهة وتحمل المصير.

وَجد هُناك حَركة داخل الكهف، نَظر فوجد أن (رشا) قد استيقظت فانتفض قلبه وَجلًا، رأى شعرها الأصفر ووجهها كالقمر في ليلة التمام، عيناها هي الشيء الوحيد المُنير الذي يراه في ذلك الظلام، نَهضت من موضعها فوجد أنها تُطابق مواصفات الفتاة التي كانت تُراود أحلامه في طفولته ومراهقته، فتاة ذات شعر أصفر وجسد نحيف ذو قوام مَمشوق أو كما يُقال "عود فرنساوي".

قامت بضبط شعرها المُبعثر ورَبطه بطريقة جعلته يُفتن أكثر مما فُتن، نَظرت له فابتسمت وقالت:

- هل تُراقبني؟!

قالتها وهي تَمزح معه، فابتسم أيضًا:

- كُنت أود ذلك.

على الرغم من أن (صلاح) في نهاية العقد الثالث من عُمره، إلا أن علاقات الحُب الخاصة به كانت أفشل جُزء في حياته التعيسة، لم يُحب أي فتاة إلا وقد كَسرت قلبه وابتعدت عنه – أو هكذا اعتقد

.. الحُب بالنسبة له لم يكن أكثر من مُجرد جُزء هادئ في حياته، لم يكن له بمُجرد أن تَغلق الحياة أبوابها في وجهه، فيحب أفلام، أو مُسلسلات أجنبية أو حتى يَحب الصيدلة والتي كانت تخصصه، حتى أن شدة حُبه لها جعلته يَتفوق في كُلية الصيدلة، ولفهمه المواد الكيميائية بشكل جيد ومعرفتها بشكل مُنظم صَنع هذا المُخدر الذي أدى به للقدوم إلى ذلك الكهف.

نَظر (هاتشي) إلى (رشا) فرَكض تجاهها وبدأ يلعب معها، خرجت من الكهف فوجدته جالسًا فجلست بجواره:

ـ هل تشعرين بتحسن الآن؟

أومأت (رشا) برأسها، كانت الإضاءة في الكهف مُسلطة عليهما بشكل جعل (رشا) تَشعر بشيء من الغرابة، الأجواء الهادئة تُحيطهم وكأن هُناك موسيقار سيخرج من قلب الصحراء ليعزف لهما موسيقى لـ"شوبان". نَظر (صلاح) لها وبدون تفكير منه سألها:

ـ ما رأيك في الحُب يا (رشا)؟

قال تلك الجملة وشعر بنبضات قلبه تزداد، أي غباءٍ هذا؟! شعر لوهلة بأنه (أسامة مُنير) في الراديو بعد مُنتصف الليل، كانت قلة خبرته في التعامل مع النساء بشكل رومانسي جعلته يَنسى طبيعة الحُب، آخر تعامل له مع أنثى كانت (لارا) وكان يُحاول التحرش بها! فالعودة مَرة أخرى للتعامل بطبيعته كانت صعبة، تحدثت (رشا) دون أن تنظر له:

- لا رأي لي سوى أن كُل ما يُقيد تفكيرنا تجاه شخص ما، ننام فنحلم به، نُسافر بعيدًا فنوَد أن يسافر معنا، نأكل طعامًا لذيذًا فنُجن لأنه ليس معنا حتى يأكل نفس الطعام- هو بالتأكيد شيء لزج ليس من أولوياتي.

شَعر (صلاح) بالتخبط بعد أن سمع تلك الكلمات، حاول مداواة الحُزن من ذلك الرد بأن ابتسم.. لكنها كانت تعلم أنه مُعجبًا بها، نظراته تَفضحه ولا يستطيع السيطرة عليها، فحاولت هي أيضًا تجاهل تلك النظرات وسألته:

- وأنت ما رأيك في الحُب؟!

ابتسم بخيبة أمل، فاعتدل في جلسته وقال:

- ليتنا كُنا في مكان به انترنت أو حتى هواتف لأسمعك أغنيتي المُفضلة.

- وما علاقة هذا بالحُب؟!

- لأنها تُلخص مأساتي معه في دقيقتين فقط تقريبًا.

عَقدت حاجبيها، لكنها طلبت منه طلب لم يتوقعه إطلاقًا:

- إذًا غنها لي.

انفجر ضاحكًا، ثم قال لها بين ضحكاته:

- أنا! إن صوتي كارثي، سيجعلكِ تشعرين بالصداع ليومين.

كان يعلم أن صوته ليس بهذا السوء، فكُلنا تقريبًا "نُدندن" أغنية تأتي في ذهننا ونبتسم لأننا نشعر بأن صوتنا عظيم، لكن صوته كان مُريحًا للنفس.. حتى والدته كانت تستمع له وتبتسم دون أن

تقول له شيء، ودون حتى أن تُخبره بأن صوته يُريح الأنفس.. لكنها فقط كانت تبتسم.

- أنا أود أن أستمع له.

- وأنا أود أيضًا.

قالتها (لارا) و (حاتم) وهما يقفان أمام الكهف، كانا يستمعا للحديث بأكمله وبمجرد أن طلبت (رشا) منه الغناء، انتفضا حتى يُشجعانه على ذلك، شعر بقليل من التحدي، وأن ما سيفعله الآن حتمًا سيُخفف عنهم الأعباء حتى ولو كان بالسلب وأنهم سيضحكون على صوته، نهض من موضعه واعتدل في وقفته.. ثم نظر لهم:

- Anna، Girl before you go now، I want you to know now... That I still love you so، but if he loves you more... go with him.

كان الشعور المُسيطر عليهم أن هذا الصوت لا يُمكن أن يَخرج من هذا الشخص، صوتٌ صافي للغاية وكأنه يقوم بتهدأتهم جميعًا، كانت (لارا) تظن أنه بمجرد أن يبدأ في الغناء سيقومون بالضحك عليه، لكنه كان يُغني بصدق.. بشجن:

- All of my life، I've been searching for a girl to love me، Like I... love you، But every girl I've ever had، Breaks my heart and leave me sad، What am I supposed to do?!

توقف (صلاح) عن الغناء.. ليس لأي مُشكلة إلا لأنه قد ذرف دمعة غير مقصودة من عينه، توقف عن الغناء وبدأت (رشا) تَفهم ما سر فشله في علاقات الحُب، فنهضت من موضعها واقتربت منه:

- لا عليك، لا عليك.

وَضعت يدها على يده لتُطمئنه، فبدأ (صلاح) يَدخل في هستيريا من البكاء.. لا أحد يعلم السر لكن الأغنية قد أوضحت أنه أحب فتاة بشدة وتركته لأجل شخص آخر.

كان يعلم بأن بكاءه هذا ليس لتلك الفتاة التي تركته ورحلت، بل لأنه كان يود البُكاء مُنذ أن جاء هذا الكهف ولم يعرف كيف.

كثيرة هي اللحظات التي تود البُكاء فيها بأي طريقة ولا تعرف، وبمُجرد أن يحدث شيئًا تافهًا تَبكي كما لم تبكِ من قبل، (صلاح) تَخطى أمر هذه الفتاة مُنذ سنوات لكن أثره في قلبه لم يستطع انتزاعه، لذا ظلت علاقاته مع النساء سطحية، واقتصرت تلك العلاقات على النساء العاهرات التي كان يرى (لارا) واحدة منهن. في الحقيقة كان يرى كُل النساء عاهرات عدا أمه.

مَسكت (رشا) يد (صلاح) فتشبث بها كأنه لا يود أن يتركها ثم أعادت التفكير مرة أخرى فسحبتها بهدوء ووقفت أمامه لتُطمئنه، هي لا تُحبه لكنها تَدري أنه يَمر بصدمة مثلهم جميعًا. اقترب (حاتم) منه ونظر في عينيه:

- أنت رَجلٌ صالح يا (صلاح).. صدقني.

ـ أنا أبعد ما يكون عن ذلك.

ـ لكننا نراك كذلك.

ـ ألم تنسَ ما فعلته معها؟- مُشيرًا إلى (لارا) -

اقتربت (لارا) منه وقد ظهرت ملامح الحُزن على وجهها:

ـ أنا قد نسيته.

نَظر لها شاكرًا وهو يمسح دموعه التي شكّلت مسارًا على وجهه.. التفوا حوله حتى يُشعروه بأنه ليس وحيدًا، فسمعوا صوت (هاتشي) يصيح ويَصرخ، الصحراء كانت مُظلمة للغاية وكأن (هاتشي) قد رأى شيئًا في ذلك الظلام، هَرول ولم يعرف أحد أين ذهب وكأن الظلام قد ابتلعه، لكن نباحه لم يبتعد عنهم كثيرًا، سارت (لارا) خلفه بخطوات ليست بالقصيرة، لكنها لم تحتجْ هذا؛ لأنها وَجدت (هاتشي) وخلفه بالضبط كان (علي).

ـ لقد جئت مرة أخرى يا أوغاد الكهف.

ابتسم لهم.. غير مُصدقين لما يروه أمامهم، كيف عاد مرة أخرى؟ أين كان أصلاً؟! لكنهم تناسوا تلك الأسئلة واقترب (صلاح) منه بشدة ثم عانقه، اقتربوا جميعًا من (علي) وكأنه غائب مُنذ سنوات.. ملامح التعب ظهرت على ملابسه والرمال قد تركت أثرًا عليها، لكن بمُجرد أن وَصل أمامهم تناسى ذلك التعب.

على الرغم من أنهم مع بعضهم مُنذ أربعة أيام فقط إلا أنهم تعلقوا ببعضهم بشكل غريب، شعروا وكأنهم أسرة واحدة.. وكيف لا! ومصيرهم مُرتبط بعضهم ببعض.

نَظر (حاتم) إلى (علي) وابتسم له:

- كُنت أعلم أنك ستعود.

- لقد عُدت لأجلكم..

لم يفهم أحدٌ جُملته، جَلسوا جميعًا أمام الكهف وقصّ عليهم ما حدث بالتفصيل المُمل - عدا جُزئية أنه قتل زوجته بالطبع - ثم بعد أن أنهى حكايته قاموا هم بإخباره ما حدث مع الشُرطة في الصباح، فتأكدت شكوكه بأن الشُرطة لن تبحث عنهم في ذلك المكان مرة أخرى بعدما حدث ما حدث.

كان قد جاء ومعه حقيبة كَبيرة بها طعام وشراب لم يتذوقوه مُنذ أن جاءوا إلى الكهف، فتحدث (صلاح) والطعام بملء فمه:

- طعام الحاضر ألذ بكثير من طعام الماضي.

ضَحك (علي) وهم يأكلون الدجاج الذي وضعه في ورق حراري والأرز وغيره من الطعام الطازج الذي كان بالمخبأ، وقد جاء أيضًا ببعض المُعلبات سريعة الأكل مثل التونة والجُبن، والعصائر بمختلف أنواعها.. حتى أنهم كانوا يسخرون مما يحدث:

- كأننا في رحلة ونسينا أننا هُنا أصلًا للهرب من الموت!

قالتها (رشا) بسخرية مُمتزجة بألم، فكانت تَدرك أن مايفعلوه الآن.. ما يضحكون عليه وما يسعدون بِه، هو مُجرد هروب من واقع أليم اصطدموا به، وأنهم قد يموتوا في أي لحظة ولا يعرف أحد أين هُم.

مرت الساعات وهم جالسون أمام الكهف في شكل دائرة، فاحدث (حاتم) بجدية:

- إذًا.. ماذا نستنتج من أن الجد الأكبر لـ(علي) كان من الشيوخ الذين قُتلوا أمامنا؟

- نستنتج أن ما نراه في الماضي له علاقة وثيقة بنا، ومن المؤكد أن المرة القادمة سنرى شيئًا آخر يوضح لنا ما المطلوب منا تحديدًا، أو لماذا جئنا هُنا على الأقل.

قالها (علي) بثقة واضحة واتفق معه الجميع، فاستطرد:

- إنه اليوم الرابع لنا في هذا المكان، ولقد حَلمت قبل أن آتي مرة أخرى أنكم ستموتون إذا لم أعد.. لذا فهو لا يحمينا أبدًا، إنه يود منا شيئًا واحدًا ونحن فقط من سنستطيع تنفيذه.

اعتدل في جلسته ثم أردف:

- جدي الأكبر كان هُناك، أي أن من المُحتمل أن يكون جدودكم كانوا معه أيضًا!

في تلك اللحظة خَطر في عقل (لارا) سؤالًا كانت تفكر فيه قبل نومها، فقالته لهم بسرعة:

- إذا كان هذا الكهف هو البوابة الزمنية التي تفصل بين الماضي والحاضر.. فكيف في المرة الأولى لنا في الصحراء أن ننتقل إلى الماضي ونحن لم نقترب حتى من الكهف حينها؟!

لم يُتوقع أن يكون السؤال ذو فائدة، لكن بعد أن قالت هذا السؤال لمعت أعينهم جميعًا وعقدوا حاجبهم، لم يُجاوبوا على هذا السؤال أبدًا ولم يخطر في ذهنهم.

- أتقصدين أن الصحراء بأكملها بوابة زمنية؟

قالها (حاتم) وهو يُفكر، فأجابت:

- نعم.. وأنت السر يا (حاتم)! فبمُجرد عودتنا للماضي وَجدنا أن الجميع يعرفك. الجميع يُخبرك أنك أنت المُنتظر، أنت لا تتذكر أنك عُدت إلى الماضي ونحن نُصدقك، لكن الرجل الغريب قال أن العودة للماضي أو حتى الذهاب للمستقبل مُستحيلة إلا وأنت موجود؛ لذا فأظن أنك أنت الوحيد الذي يعلم الإجابة.

شَرد (حاتم) في سماء الصحراء، يُحاول تَذكر أي شيء لكن بلا جدوى، فهو لا يعرف تلك الأحداث ولم يرَ هؤلاء الرجال من قبل، لكن ماذا إن كان هو نفسه وراءه سر لا يعرفه؟ ماذا إن تعرض لحادث في صغره جعله يفقد الذاكرة؟ لكنه يتذكر جيدًا أنه لم يتعرض لأي حادث أو حتى عانى من النسيان.. كونه مُحاسبًا جعل ذاكرته أقوى، لذا فهو لا يعرف أي شيء مما قاله الرجل الغريب في الماضي، أنه المُنتظر وأن الجميع يعرفه.. فكيف هذا؟

- هل تلك الأسئلة سيُجاب عليها؟!

قالها (صلاح) مُطرقًا رأسه أرضًا، فأجابته (رشا):

- أنا أظن أن الإجابة حولنا ونحن لا ندري.

في تلك الأثناء، سَمع (حاتم) صوتًا في الصحراء ربما لم يسمعه أحد غيره، صوت يَتردد في جوف الصحراء ويتكرر:

ـ " يارب نفسي أُغرقت بذنوبها... فبكيت ندمًا بالدمع كالأكداسِ".

نَهض (حاتم) من مجلسهم والخوف يتردد في عينيه، أخذ يلتف مرارًا وتكرارًا حتى يعرف مصدر الصوت:

ـ ماذا بك؟!

قالتها (لارا) ثم نهضت ووقفت بجواره، أشار لها أن تصمت بحدة، الصوت لازال يتردد:

ـ " فأتيت بابك نادمًا مُتضرعًا... فعسى بقربك يهجع الوسواسِ".

نَظر لهم وهمس:

ـ أتسمعون ذلك الصوت؟!

هزوا رؤوسهم نفيًا، فشعر بخوفٍ شديد وتحولت ملامحه، ثم قال لهم:

ـ ادخلوا الكهف..

الصوت يزداد في الصحراء ويتكرر بسرعة:

ـ " يارب نفسي أُغرقت بذنوبها... فبكيت ندمًا بالدمع كالأكداسِ".

صاح (حاتم) فيهم مُجددًا:

- قُلت ادخلوا الكهف، هُناك أحد قادم.

انتفضوا من موضعهم ودخلوا الكهف، وفي تلك اللحظة بدأ نباح الكلب، يصيح هو الآخر وكأن هُناك من هو قادم، دَخلوا الكهف وهم يَشعرون بخوف شديد، الصوت هدأ بمُجرد أن دخل (حاتم) الكهف.. بل اختفى تمامًا، لكن (هاتشي) لازال يصيح فيهم ولا أحد يَدري السبب:

- هُناك شيء ما يحدث.

قالها (حاتم) برعب لم يروه في أعينه من قبل.لكنه صمت فجأة، تجمدت ملامحه، لقد فَهم الرسالة:

- واحد منا سيموت خلال ساعة من الآن.

حين قيلت تلك الجُملة من لسان (حاتم) اهتز الكهف بشدة.. في تلك المرة سَمعوا جميعًا الصوت الصادر من الصحراء:

- " فأتيت بابك نادمًا مُتضرعًا... فعسى بقربك يهجع الوسواسِ".

ازداد الضوء مُجددًا في الكهف حتى جعلهم يَسقطون على الأرض ويَصرخون بشدة، وآخر ما سمعوه كان صوت الأبيات الغريبة تتردد في أذهانهم وأسماعهم.

الصداع والضوء، الخوف والموت، كُلها أشياء جعلت عقولهم تُشتت، الكهف لازال يهتز بشدة وهم يُحاولون التماسك في بداية الأمر، لكن بمُجرد أن ازداد الضوء استسلموا لذلك المصير، الرجوع

مجددًا إلى الماضي!

هدأت أنفاسهم، الضوء عاد طفيفًا كما كان، الكهف لم يعد يهتز، الصُداع لازال قويًا ويُسيطر على رؤوسهم بالكامل، فَتح (صلاح) عينيه بهدوء حتى يَرى ما حدث لهم وفي أين زمن هُم، فوجد أنهم لازالوا في أماكنهم.. نائمين على الأرض حتى يستعيدوا قوتهم التي هزمها الكهف، نَظر لهم بخوف، شعوره يُخبره أن تلك المرة لن تكون مثل بقية المرات.

وقف (صلاح) فوجد الباقين يتألمون من الصداع الذي دَمر الجُزء السليم من عقولهم، ما لفت نظره أن (هاتشي) لازال نائمًا ولم يفتح عينيه، حتى شعر بأنه قد مات إثر ما حدث لكنه وَجد أن أنفاسه مُنتظمة، وأن (حاتم) لم يستفق بعد.

فَتحوا أعينهم بعد مرور دقائق – عدا حاتم - ونظر بعضهم إلى بعض، فقال (علي) والإجهاد ينهش لسانه:

- ليس لدينا وقت، يجب أن ننهض.

استمعوا لأصواتٍ غريبة في الخارج، خَرج (صلاح) ليجد نفسه أمام عددٍ لا نهاية له من الناس التي تتغنى بتلك الأبيات التي سمعوها في الصحراء، كان المَنظر مهيبًا بحق، دائرة يلتف بها الناس وهم يتغنوا بتلك الأبيات، وكُلما انتهت الأبيات قالوا:

- الله.. الله.. الله.

شعر (صلاح) بالخوف مما يرى، ابتعد قليلًا عن الكهف ولم يرَه أحد من هؤلاء الأشخاص، لكنه بمُجرد أن ابتعد.. وَجد أن الضوء في الكهف أصبح طفيفًا، خَرج البقية عن الكهف ولاحظ أن (حاتم) لم يخرج معهم لأنه لازال مَغشيًا عليه، اقترب (صلاح) من الأشخاص ونَظر لهم بدقة فوجد الشيخ "مُحمد بن يعقوب بن الفراس" يقف بينهم يتغنى ويُناجي الله مثلهم تمامًا، وبمُجرد أن دقق النظر وَجد الشيوخ الذين قُتلوا أمامهم. لكن لحيتهم لم تكن بيضاء بالكامل ووجههم لم يكن عجوزًا بنفس الدرجة، نَظر لـ(علي) فوجد أنه لَمح جده بينهم.. اتخذ خطوة لكن جذبته (رشا):

- لا تُخبره بأي شيء، لا تُغير في الماضي حتى لا ينعكس بالسلب علينا.. فقط حاول تحذيره.

أومأ (علي) برأسه موقنًا بأنها على حق، فلا يَدري أحد ماذا سيحدث إذا أخبر جده بألا يُحاول حَرق الكهف. من المُحتمل جدًا ألا يذهب جده فعلًا وبالتالي لن يكون هُناك سببًا لحضوره هُنا.

اقترب (علي) من الدائرة ومعه (صلاح)، ثم قال بصوتٍ عال:

- السلام عليكم.

في تلك اللحظة فقط وفي هدوء وتنظيم تام، سَكت الحشد تمامًا، ثم نَظر جد (علي) الأكبر له نَظرة جعلته يخاف مما قد يحدث له، فنظر الشيخ (مُحمد) لـ(صلاح) أيضًا وهو لا يعلم تمامًا من هؤلاء، ثم قال:

- أعلم أنكم خَرجتم من الكهف.

تحدث (علي) بثبات:

- نعم، أنت تُدعى (مُحمد بن يعقوب بن الفراس)، أنا أعرفك جيدًا.

- كُل من في هذه الصحراء يعرفني، إنها قبيلتي.

تَحرك (علي) بثقة تجاههم، فقام الجَمع بإلقاء نظرة له جعلته يَخاف ويتراجع لخطوات، ثم قال الشيخ مُحمد:

- أخبرني إذًا.. إذا احترق هذا الكهف ما الذي سيحدث؟

تعجب (علي) من أن جده لم يسأله حتى من هو، أو من أين أتى، بل سأله بمدى عواقب حرق الكهف، عَقد (علي) حاجبيه وقال:

- لو كُنت أعلم ما كنت قطعت كُل هذه المسافة حتى أراك.

- ولِمَ تود أن تراني؟

اقترب الشيخ (مُحمد)، ولاحظ (علي) أن كُل من مع الشيخ يهمسون بكلمات لم يسمعها جيدًا، نَظر الشيخ إلى (علي) و (صلاح) بتحدٍ:

- مهما فعلت، مهما استطاع هذا الكهف قتل قبيلتي وإيذاء من يقترب منه، سنحرقه.. حتى ولو بنيت واحدًا مثله وأقوى منه، ستكون قصة تتباهى بها الأجيال عندما يعلمون أن الشيخ الفراس قد استطاع القضاء على هذا الكهف الملعون، وستكون نهايتك مثله.

ابتلع (علي) ريقه وهو لا يفهم شيء مما قيل له، لكنه وضَح وجهة نظره إلى الشيخ:

- يا شيخ، أنا لست ضدك صدقني.. أنا أود الوصول إلى حل معك.

- لا يوجد حلول سوى حرق هذا الكهف.

نَظر (صلاح) للشيخ بثقة أيضًا ثم سأله:

- أنت تعرفنا؟! رأيت هذه الوجوه من قبل؟!

لم يَرد الشيخ، لكنه عاد مُجددًا إلى الدائرة وبدأت الأصوات ترتفع.. لقد كانوا يتهامسون بالأبيات:

- "فأتيت بابك نادمًا مُتضرعًا... فعسى بقربك يهجع الوسواسِ".

لم يَنظر الشيخ لهما، لكنه قال بصوتٍ عال:

- الحرب لم تنتهِ بيننا.. صدقني.

في تلك اللحظة لم تكن (رشا) على ما يُرام، جحظت عيناها بمُجرد أن سَمعت تلك الأبيات، إنها أبيات معروفة لها.. لقد كان أبوها يقولها لها دائمًا، أبيات عُرفت في العائلة من صغيرها لكبيرها، لم تأخذ وقتًا طويلًا لتتذكر.

اقتربت من الدائرة الخاصة بالشيوخ والرجال:

- "يارب نفسي أُغرقت بذنوبها... فبكيت ندمًا بالدمع كالأكداسِ".

بعد أن قالت تلك الجملة بثواني نَظر لها الشيوخ بتعجب.. حتى أن هُناك منهم من ابتعد عن الجمع، في تلك اللحظة فقط تحولت ملامح الشيخ من الثقة والجمود إلى القلق والتوتر، هدأت الأصوات تمامًا ولم يعد أحد يتهامس حتى.. نَظرت رشا لهم وقالت:

ـ هل هُنا أحد يُدعى الشيخ "الصفتي"؟!

نَظر الشيخ (الفراس) إلى شخص يقف بجانبه، هُنا عَرفت (رشا) أن هذا هو جدها الأكبر.. فوَجهت حديثها له:

ـ أأنت الشيخ (الصفتي)؟!

أومأ الرجل بقليل من الخوف، فَهمت (رشا) أن هؤلاء الأربعة هم أجدادهم، لكنها لم تهتم الآن سوى برؤية جدها الذي قُتل أمامها بالفعل، فقالت لهم:

ـ نحن لسنا ضدكم، نحن لا نفهم شيء وقد جئنا لكم حتى تغيثونا مما قد يحدث لكـ...

ـ كيف خَرجتم من هذا الكهف أحياء؟

قالها الشيخ (الفراس) بنبرة بها قليل من الخوف، هُنا حدث ما لم يتوقعه أحد.. سَمعت (رشا) صوت بكاء جدها (الصفتي) وهو يقول لصديقه الشيخ (الفراس):

ـ لقد صدق، لقد صدق..

ـ شششششش.. اسكت لا تقل هذا.

قالها (الفراس) بخوفٍ شديد، نَظروا حولهم كأن هُناك أحد يُراقبهم. بعد أن هدأ الشيخ (الصفتي) قال لهم:

- أتعلمون من نحن؟!

- نعم، أنت جَدي الأكبر يا شيخ.. ولقد جئنا من المُستقبل عن طريق هذا الكهف.

بدأ الجَمع يَضرب كفًا على الآخر، ومنهم من قال:

- أعوذ بالله، أعوذ بالله.

كانت تلك الأقاويل تثير الرعب في النفوس، الظلام يُحيط بهم جميعًا ولا يَدري أحد ما قد يَحدث لهم:

- لا تعودوا مُجددًا إلى الكهف.

قالها الشيخ (الفراس) بهدوء، فقام (صلاح) بالردّ عليه:

- وكيف لنا أن نعيش في عالم غير عالمنا؟!

قبل أن يكتمل ذلك الحديث، وقبل أن يستطيع الرد سَمعوا صوت اهتزاز الكهف، تلك كانت إشارة بأنهم سيعودون مُجددًا إلى حاضرهم، نَظر (علي) لهم:

- يجب أن نعود.

لم يَرد (صلاح) عليه واستطرد حديثه:

- أخبِرونا ما تعرفوه عن هذا الكهف، أخبرونا..

نَظر الشيخ الفراس إلى الجمع الذي تفرق من شدة الخوف ولم يستطع الرد، بدأ الكهف يهتز مُجددًا وصوته يعلو، هُنا تَذكرت (لارا) أن حاتم ليس معهم وأنه لازال في الكهف، تجمد الدم في عروقها ثم قالت بذعر:

- (حاتم) ليس معنا ولازال في الكهف، لن نستطيع العودة بدونه.

بمُجرد أن قالت تلك الجملة، عادت مُسرعة إلى الكهف.. تَذكر (علي) حديث الرجل الغريب بأن السفر إلى الماضي والمُستقبل والعودة إلى الحاضر لن يتم دون أن يكون حاتم جُزءًا منه، رَكضت (رشا) حتى تَدخل الكهف وظل (صلاح) واقفًا أمام الشيخ:

- أخبرني يا ابن الزانية، سنموت بسببك.

لم يتحدث الشيخ، جذبه (علي) حتى يَدخل مرة أخرى إلى الكهف لكن (صلاح) ظل مُتمسكا في أن يستمع لأي كلمة من الشيخ:

- لن نستطيع العودة يا غبي.

قالها (علي) بخوف وهو ينظر إلى الكهف الذي لازال يهتز بشدة، في تلك اللحظة فقط رَكض (علي) تاركًا (صلاح) في الخارج، دَخل إلى الكهف فوجد الضوء يُسيطر على عينيه بمُجرد أن اقتحم بوابة الكهف، وكان آخر ما رآه هو (صلاح) وهو يَركض ناحية الباب.

"آه لو عَلمت أن النهاية اقتربت لذلك الحد، ولو عَلمت أن هذا ما سيحدث لي.. أقسم لكنت هَربت حتى ولو ظللت عُمري كُله في الصحراء".

أتعلم ذاك الشعور الذي يُخبرك بأن كُل شيء قد قارب على الانتهاء، وأنت حتى لا تَعلم ما الذي سوف يرسى عليه الأمر، ما سيكون مصيرك ومصير من حولك، أتعلمه؟! ذلك هو الشعور الذي أصابهم جميعًا.

بمُجرد أن توقف الكهف عن الاهتزاز، والضوء عن الوَميض، عادوا مرة أخرى إلى وعيهم.. لكن على عكس كُل المرات التي عادوا بها إلى الماضي، لم يكن الشعور بالخوف هو المُسيطر عليهم ولا حتى التوتر، بل كان الرضا، وقبول كُل ما هو آتٍ بصدرٍ رحب.

لم يعد (حاتم) مَرة أخرى إلى وعيه، فتحرك (صلاح) تجاهه ليطئمن على نبضه فوجده سليمًا لكنه لم يتحمل الضوء والصُداع الناتج عن السفر عبر الأزمنة، نَظرت (رشا) إلى (هاتشي) فوجدته نائمًا على الحصيرة، لا تعلم لِمَ تشعر بأنها ستموت في القريب العاجل، يبدو أن قول (حاتم) بأن هُناك من سيموت سيصدق، وأنها هي من ستموت.

نَظرت (رشا) إلى (صلاح) فوَجدته يَجلس على الأرض ويضع يديه على رأسه، يُفكر فيما حدث وفيما سيحدث، لا تعلم لماذا بمُجرد أن نظرت له أصابتها قشعريرة، واجهت للمرة الأولى في أعين أحدهم اليأس الحقيقي، ولم يكن شخصًا عاديًا.. لقد أصبح بمثابة

الشخص الذي تحب أن تراه أمامها، حتى ولو لم تعترف لذاتها أنها أعجبت به وبشخصيته وبقدرته على المواجهة، لكنها تشعر بسعادة بالغة بمُجرد رؤيته يجلس أمامها.

فَتح (حاتم) عينيه فظهر التعب عليهما بحق، سَعل بشدة وأخذ أنفاسًا مُتلاحقة، هدأ قليلًا ثم نظر لهم وسألهم بتعجل:

ـ كم مر من الوقت؟!

فكّر (علي) بهدوء، و أجاب:

ـ حوالي نصف ساعة فقط.

التقط (حاتم) أنفاسه، أغمض عينيه بهدوء وسألهم مرة أخرى:

ـ ما الذي حدث لي؟!

ـ لا شيء، لقد فقدت الوعي فحسب.

قالتها (لارا) ببعض القلق الذي تحاول إخفاءه بتجاهل مُصطنع، لكنها كانت تخاف عليه بشدة ولا تود أن تراه في تلك الحالة، ابتسم (حاتم) لها برغم التعب:

ـ أود الحديث معكِ في الخارج.

قالها (حاتم) وهو يُحاول النهوض فأسنده (علي)، خَرج من الكهف فلحقته (لارا) وقلبها يدق بشدة من التوتر، هيئته لم تكن طبيعية.. التعب ازداد بها والعلامات السوداء تحت عينيه ازدادت، حتى لحيته السوداء أصبحت لا تليق بوجهه ذو البشرة الفاتحة، كان يُحاول أن يظهر أمامها قويًا، يحاول الوقوف أمامها بلا اهتزاز أو خوف، لكن (حاتم) كان يعلم مالا يعلمه الآخرون.

- أنتِ جميلة، لقد نسيت أن أخبركِ ذلك.

ابتسم لها، فانتفض قلبها سعادةً من تلك الكلمة، لو كان أحدًا أخبرها أن كلمة (جميلة) ستكون كفيلة أن تُنسيها ما مرت به خلال الأيام القليلة الماضية.. حتمًا لأخبرته أنه مَجنون للغاية، ابتسمت قائلةً:

- وأنت وَسيم أيضًا.
- أنا أعلم ذلك.
- ومُتعجرف للغاية.
- إنني مشهور بذلك.

ضحكت (لارا)، لكن (حاتم) لم يضحك واكتفى بالابتسام فقط:

- هل من المُمكن أن نبتعد عن هُنا قليلًا؟!

أومأت برأسها، فابتعدا عن الكهف لكنه مازال واضحًا لهما، وَقف قبالتها وأخبرها:

- ما رأيكِ في الأيام الماضية؟
- كانت الأسوأ على الإطلاق، ما رأيك أنت؟
- إنها الأجمل، صدقيني.. أنا لم أتعلق بالحياة مثلما تعلقت بها في تلك الأيام.
- لكن ذلك الكهف هو الجحيم بعينه.
- بل هو الجنة، الجنة التي أبتسم كُلما أراها.

لم تفهم حديثه، لكنه اقترب منها ووضع يده على شعرها:

ـ يا (لارا)، هل تستطيعين الحفاظ على سرٍ ما؟

بدأ يتحسس شعرها بهدوء، لم تخف (لارا) لأن النظرة الموجودة في عينيه كانت أبعد ما تكون عن الشهوانية، بل كانت نظرة مُمتلئة بحُزن عميق، كَسرة لا تكاد تراها في الأعين، فأومأت برأسها.

ـ أنتِ تعلمين، أنا أخبرتك من قبل أنكِ جميلة.

ـ نعم، أعلم ذلك.

ـ كُنت أود أن أخبرك أنكِ أجمل امرأة رأيتها، لكني لم أستطع قول ذلك.

كان كلامه مُضطربًا ولم تفهم ما الذي يَرمي إليه. فأردف قائلًا:

ـ أنا أعلم أكثر مما قُلت لكم في الداخل.

رأت (لارا) أن اللون في عينيه بدأ في الاحمرار من شدة الحُزن، قد نجح في مداراة الدموع لكنه لم ينجح في تخبئة حُزنه الشديد.

ـ (حاتم)، ما بك؟!

ـ (لارا)...

في تلك اللحظة اقترب منها، وَضع رأسه قبالة رأسها، ثم ابتسم لها قائلًا والدموع تسيل من عينيه:

ـ سأموت بعد سبع دقائق من الآن.

كانت صدمة لا تقوَى على تحملها، فنَظرت له غير مُصدقة لما قال.

قام (حاتم) بوضع فَمه أمام فمها وقَبلها قُبلة صغيرة، ثم مَسك يدها وقال:

- لو خُيرت بين أن أموت وأراكِ في أيامي الأخيرة، أو أظل حيًا ولا أعرف عنكِ شيئًا.. لاخترت أن أموت وأراكِ، ثم أقبل يدك وأشكرك على أنكِ جعلتيني أحب الحياة.

لثم يدها بقُبلة صغيرة:

- أشكركِ على أنكِ جعلتيني أحب الحياة.

لم ترَ في حياتها انهيار نفسي مثلما شعرت في ذلك الموقف، لم تستطع تخبئة حُزنها وبكائها فانفجرت باكية. فالشك لم يكن موجودًا في أن (حاتم) قد لا يموت، كُل ما قاله في الماضي قد حدث.

- الآن سأذهب.

أبعد يده عن يدها ثم نَظر لها قائلًا وهو يُدقق في عينيها:

- سأبتعد عن الكهف حتى لا تتحملوا عناء حمل جُثتي ودفنها بعيدًا، أخبريهم أني أحببتهم بصدق.

لم تستطع كَتم بكائها، نَظر لها للمرة الأخيرة ثم سار ولم يلتفت إليها، لم ترَ (لارا) وجهه لكنها سَمعت صوت بكائه، ظل يبتعد عنها حتى اختفى في ظلمات الصحراء، صوت بكائها كان عاليًا حتى أن من في الكهف رَكضوا تجاهها وهم يُحاولون معرفة سبب بكائها،

فقالت:

ـ لقد مات (حاتم).. سيموت الآن.

ارتعب (علي)، صُدم (صلاح)، تراجعت (رشا) إلى الخلف، كيف مات ومتى؟!

ـ إنه يسير بعيدًا.

قالها (علي) بعد أن رآه يسير وحيدًا، لم يتوقف (صلاح) بل هرول تجاه (حاتم)، أخذ يَصرخ:

ـ يا (حاتم)، توقف توقف..

كان يسمع لكنه لم يلتفت، كان يعرف أن مصيره قد حلّ وأنه سيموت الآن، نَظر خلفه فوجد (صلاح) يَركض ناحيته لكنه لازال بعيدًا جدًا، ابتسم مرة أخيرة بين دموعه ثم لوّح لهم، وفي تلك اللحظة سقط على الأرض. وبدون أي مُقدمات ارتطم جسده برمال الصحراء ليُعلن النهاية، وقد مات (حاتم) ولا أحد يعلم سبب وفاته.

بمُجرد أن اقترب (صلاح) من (حاتم)، أخذ في البُكاء وهو لا يَدري بأن الدموع تتساقط من وجهه مُكذبًا ذاته بأن هذا حدث، ولابُد أنه قد أخطأ في قراءة المُستقبل ككل مرة. اقترب (صلاح) منه فوجد أن جسده قد أعلن نهايته ونبض قلبه قد توقف.

نَظر (صلاح) إلى جُثته بهدوء فلَمح أن الدموع لازالت في عينيْ (حاتم) لم تجف، مسحها ثم نظر لأصدقائه عند الكهف وأخبرهم أنه قد مات..

ـ لقد مات..

صاح حتى يسمعوه ثم كررها مرة وراء مرة، لم تُصدق (رشا) أن واحدًا منهم وقد يكون الأهم.. قد مات بهذه البساطة، دون أن يقتله أحد أو حتى تُصيبه لعنة الكهف كما أصابت رجال الشُرطة والشيوخ من قبل، لقد مات بشكل طبيعي جدًا.

نَظر (علي) إلى (لارا) فوجدها تَصرخ بشدة، تَبكي بكاءً غريبًا وهستيريًا.. لقد مات (حاتم).

***

بعد مرور ساعات وبعد أن امتزج ضوء الشمَس بظلام الليل، لم يَتحدث أحد.. فالصدمة كانت تُسيطر عليهم أجمعين، لم تتوقف (لارا) عن البُكاء، ورغم كُل ما حدث تعجب (علي) من شدة حُزنها وبكائها، هي لم تعرفه ولم ترَه إلا في الأيام الماضية فقط، فكيف أحبته لتلك الدرجة، وهو كذلك؟!

لَمح أن (صلاح) يَسترق النظر نَحو (رشا) التي كانت تَنظر إلى الأرض وقد امتلأت عيناها بدموع واهية، ليس لحُزنها على (حاتم) فحسب بل لأن الموت أصبح قريبًا منهم جميعًا، ومن الواضح أن المكان لن يحميهم كما كان يحميهم.

نَظرت (رشا) إلى (هاتشي) الذي كان يُشاهد ذلك المَنظر بهدوء، لم يَتركها تحزن وحدها فجلس بجوارها حتى يُطمئنها، ابتسمت له رغم حُزنها وهي حتى لا تعلم ما سره وكيف عاش هذا الكلب في الصحراء، لكن تلك الأسئلة ستقودها لأسئلة أخرى وهي حتى لا ترغب في البحث عن إجابات.

ـ لقد أخذ الحُزن منا ما يحتاج.

قالها (علي) بصرامة، التفتوا جميعًا له فاستطرد:

ـ يَجب أن نَهرب من هذا المكان، أنا أعلم كيف.. سنركض حتى نصل إلى المدينة كما فعلت مع أخي.

كان يعلم أن ما يقوله ليس بحل، وأن الكهف قد استطاع الوصول له في أحلامه وجعله يعود مُجددًا إليه دون حتى أن يَصعب عليه ذلك، لكن تلك المرة.. هل سيسمح لهم الكهف بالهروب أصلًا؟!

كانت الإجابة في أذهانهم "لا، لن يَسمح"، لكن بمُجرد أن قال (علي) تلك الكلمات، انتفض (هاتشي) من مكانه وهو يَنبح بشدة، سَمعوا صوتًا لشيءٍ ما في الصحراء كأن هُناك زلزالًا يَضرب المكان، حركة (هاتشي) الشديدة أمامهم جعلتهم يَشعرون بشيءٍ ما خاطئ يدور في الأجواء، لكن (رشا) قالت بتوتر:

ـ لن نعود إلى الماضي، لقد مات (حاتم) الذي كان السبيل الوحيد للعودة.

كانت الشَمس تُهون عليهم الأمر، فهم يرون كُل شيء أمامهم ولم يروا أحد قادم أمامهم، لكن اهتزاز الصحراء لم يتوقف، فانتفضت (لارا) من موضعها وقالت:

ـ أنا سأهرب، لن أظل هُنا.

رَكضت بُسرعة إلى اللاشيء في الصحراء وهي تَبكي خوفًا وحُزنا، نَظر (علي) إلى (صلاح) وأيقن أن هذا هو الحل الوحيد أمامهم، فالكهف سيقتلهم جميعًا إن ظلوا به، انتفض (علي) ورَكض فلحقه الجميع.

رَكضوا وهم لا يعرفون جهتهم، جَعلوا الكهف خلفهم وانطلقوا.. لكن حدث ما أوقفهم قليلاً - عدا (لارا) التي انطلقت دون أن تنظر خلفها -، لم يتحرك (هاتشي) وتوقف نباحه تمامًا، تعلق نظره بشيء ما في الصحراء لم يرَه أحد غيره، في تلك اللحظة فقط أيقنوا أنه يرى ما لم يستطع شخصٌ منهم رؤيته وكأن هُناك من يأمره بأن يَصمت، نَظرت (رشا) له وقالت:

- تعالَ، تعالَ لا تقف هُنا.

لكن (هاتشي) لم يُحرك ساكنًا، فنَظر (علي) لها:

- هيا.. هيا.

اهتزاز الصحراء لم يتوقف بل ازداد، حتى أن (صلاح) يكاد أن يُجزم بأنه رأى الرمال تتحرك من قوة الاهتزاز، لم تتحرك (رشا) وانتظرت أن يأتي (هاتشي) لها لكنه توقف تمامًا، حتى أنه سار ودَخل الكهف كأن هُناك من يُسيطر عليه.

- هُناك شخص ما يأمره، لقد تغير تمامًا!

قالتها (رشا) وهي شاردة الذهن حتى سَمعت صُراخ (علي) وهو يَجذبها ويقول:

- اركضي، لا تتوقفي أبدًا.

رَكض (صلاح) بمُجرد أن وَجد الكلب قد دَخل الكهف ولم يره أحد بعد دخوله. نَظروا إلى (لارا) فوجدوها تُهرول بعيدة عنهم تمامًا، فلم تكن تعلم أين وجهتها لكنها تود أن تبتعد عن هذا الكهف الملعون بأي طريقة،

العودة مُجددًا إلى الحياة؟ كانت تعلم تمام العلم أنه سيتم القبض عليها بمُجرد أن تطأ قدميها الأرض في المدينة، وحتى إن استطاعت الهرب من الشُرطة فلن تستطيع الهرب من رجال المُدير الذي قتلته، نَظرت خلفها فوجدتهم يبعدون عنها بأمتار عديدة، فاطمئنت قليلًا لأنها وجدتهم خلفها أصلًا.

جفّت الدموع على وجهها، شعرت بأن الهرب من هُنا بات مُمكنًا وستعود مرة أخرى للمدينة بعد دقائق من الآن، نَظرت إلى الشمس وذلك الضوء الساطع الذي يُعطيها قليلًا من الأمل وأن النهاية لم تقترب لها، فربما أن الحياة لم تبدأ بعد!

بعد أن واتتها تلك الأفكار المُتفائلة والمُبتسمة للحياة، نَظرت خلفها فلم تَجد أحدًا منهم.. بل والأغرب من ذلك أنها وَجدت الكهف أمامها كأنها لم تَركض من الأساس.

في نفس اللحظة التي كانوا يركضون بها، وَجدوا أن (لارا) لم تعد موجودة أمامهم. توقفوا قليلًا وهم يلتقطون أنفاسهم، فنظرت (رشا) بجوارها لتجد شيئًا غريبًا:

ـ يا رجال، إن الكهف هُنا!

نَظر (علي) إلى جواره وَجد الكهف كما هو، ووَجد أيضًا (لارا) تقف أمامه مثلهم، لم يكن ظنهم صحيحًا بأنهم ابتعدوا عن الكهف وأنهم من الممكن أن يهربوا بعيدًا عنه.

خيبة الأمل أصابتهم جميعًا عدا (صلاح) الذي نَظر إلى الكهف وانفجر ضاحكا، تلك اللحظات التي تشعر فيها أنك ستموت لا محالة..قليلة، إلا أنها مُميتة حقًا وقد تقودك إلى الجنون دون حتى أن تعرف.

- إنه لا يود تَركنا، لا يود أن نبتعد عنه.

قالها (علي) وقد فَهم أن الهروب لم يعد مُمكنًا كما كان، بقاؤه هُنا أصبح إجباريًا، لكنه شعر بالتحدي يتولد داخله بأن هذا الكهف لن يستطيع القضاء عليه، ونَظر إليه بغضب وازدراء ثم رَكض مَرة أخرى:

- لا.. لا تتركنا.

قالتها (رشا)، لكن (علي) لم يستمع وقام بالركض مَرة أخرى وهو يحاول الابتعاد عن الكهف، أنفاسه المُرتعبة تعلو صوت أقدامه وهي تضرب الرمال، العرق يتصبب من وجهه ويكاد لا يرى شيئًا أمامه، ابتعد قليلًا عن الكهف لكنه انتظر حدوث ما لا يتوقعه، انتظر أن يرى الكهف أمامه كما حدث في المرة السابقة.. إلا أن ذلك لم يحدث، لكن الأغرب والأرعب قد حدث له، نَظر فوجد امرأة تبتعد عنه بأمتار، كان شعر المرأة المُتموج ينسدل على كتفيها، ترتدي عباءة بيضاء طويلة كأنها شبح.. أو هي شبح بالفعل! لم يُدرك (علي)

ماهيتها إلا أنه اقترب منها فوجدها زوجته (دُنيا) تَنظر له نظرات واساها الحُزن.

ـ دُنيا!

في تلك اللحظة جاء في ذهنه الحُلم الذي حَلم به في الأمس، هذا ما حدث في الحلم.. نَظر لها بخوف وتراجع حتى تعثرت قدميه وسَقط على الأرض.

نَظر (صلاح) لـ(علي) الذي يبتعد عنهم، فوجده قد سقط على الأرض وهو يُحدق في شيء لم يستطع أحد رؤيته غيره، فنَظر(صلاح) لهم وقال:

ـ انتظروا هُنا، سأذهب إليه.

قالها لهم والقلق يُحاربه، تقدم (صلاح) ناحية (علي) لكنه لم يَركض، بل كان يسير فقط ليتابع ما يحدث له.

نَظر (علي) أمامه فوجدها لا تَتحرك، لكنها تَنظر له فقط وكأنها ستَقدم على قتله:

ـ من أنتِ؟!

أيقن أنها ليست زوجته، وأنه ليس بحُلم حتى.. فالأموات لا يُمكن أن يعودوا مُجددًا إلى الحياة.. بالتأكيدً ليست هي، قالها لها والخوف يُهدد كيانه.

ـ عُد مُجددًا.. عُد.

بمُجرد أن قالت تلك الكلمات، سَمع (علي) صوت البرق يُجمد الدماء في العروق، بدأت الأمطار تتساقط بشدة – تمامًا كما جاء في الحُلم -، هُنا شَرد ذهنه للحظة.. لقد ماتوا جميعًا في الحُلم!!

نَظر خلفه فوجدهم يقفون وينتظرون أن يعودَ مُجددًا، هدأت أنفاسه لأن الحُلم لم يتحقق بأكمله، ثم وَجد (صلاح) يقترب منه فنظر مُجددًا لزوجته لكنها كانت قد اختفت.

- ما الذي حدث؟!

قالها (صلاح) بقلق وهو يَمد يده إليه حتى ينهض مُجددًا، هز (علي) رأسه نافيًا غير مُصدقًا ما حدث:

- لقد رأيت زوجتي، رأيتها..

لم يتعجب (صلاح) لأن هذا المكان قد مَحى لهم مُصطلحات عديدة منها (التعجب)، لم يسأله كيف رأيتها وهي ماتت – كما أخبرهم -، لأنهم رأوا الأعجب من ذلك في هذا المكان.

- إننا في خطر.

قالها (علي) وهو يَنظر للموضع الذي كانت تقف فيه والمطر يهطل عليهم بشدة، فتحدث (صلاح):

- يجب أن نعود، أليس كذلك؟!

نَظر (علي) له بُحزن وأومأ برأسه مُستسلمًا لما قد يَحدث لهم، والمؤكد أن ما سيأتي سيكون أسوأ بكثير مما مضى. ساروا حتى وَصلوا إلى (رشا) و (لارا)، وبعد أن هدأوا قليلًا دَخلوا الكهف حتى يحتموا من شدة المَطر، فوجدوا أن (هاتشي) يقف في الكَهف

مُحلقًا في شيء ما غير مرئيًا بالنسبة لهم ولم يُصدر أي صوت، لكنه فقط اكتفى بالنظر لهذا الفراغ.

نَظرت (رشا) وقد تأكدت شكوكها:

ـ هُناك شيء ما معنا هُنا في الكهف، وهو فقط - مُشيرة إلى الكلب - من يستطيع رؤيته.

الأمطار تزداد، البرق والرعد يُتممان أجواء الخوف المُحيطة بهم، لكن (لارا) قررت:

ـ أنا لن أقف في هذا المكان.

خَرجت من الكَهف رغم زيادة الأمطار، كانوا على علم بأنها مُحقة، فأنت لا تَدري ما قد يحدث وأنت في ذلك الكهف، وكما قالت (رشا) هُناك شيء ما معهم، لا أحد يَدري من هو أو ماهيته، خَرجوا معها وهم يضعون أيديهم على رؤوسهم ليحموها من شدة المطر، لكن في تلك اللحظة سَمعوا صوت الأبيات تتَردد في جوف الصحراء:

ـ "يارب نفسي أُغرقت بذنوبها... فبكيت ندمًا بالدمع كالأكداسِ".

في الثانية التالية وبعد أن استمعوا لهذا البيت، سَمعوا صوت نباح الكَلب من داخل الكهف بشدة، حتى أنه خَرج مُسرعًا من الكهف وظل يَركض بعيدًا وهو ينبح، الأصوات تزداد، أكثر من شخص يُرددها بعزيمة كأنهم يحتمون بها من شيء ما.

أما الكَلب فقد استمر راكضًا حتى ابتعد بشدة عن الكهف ولم تستطع (رشا) أن تجعله يقف، لقد بدأت شكوكها في التأكيد فنَظرت لهم بخوفٍ وقالت:

- أنا فَهمت ما يحدث..

وفي طريقها لأن تستطرد حديثها، وبعد أن نظروا لها بشغف وخوف، اهتزّت الصحراء اهتزازًا عنيفًا وسريعًا مُجددًا، وضوء الشمس أصبح أكثر حدة.. حتى أن الضوء أصبح يُسيطر على أعينهم، سَقطوا جميعًا على الأرض وقد أدرك (علي) في خِضم ما يدور، وهو أنهم سيعودون مرة أخرى إلى الماضي. وقد تكون المرة الأخيرة!

***

"قبل النهاية، تَنظر إلى ذاتك في المرآة.. تُخبرها بأنك قد فعلت أقصى وأحسن ما عندك، لكن الحياة تأبى أن تَكون جُزءًا منها، قد تَشعر بأن السعادة التي تُريدها لن تجيئك إلا بموتك، وأن تموت بشرف وشجاعة، هذا ما كان في ذهني حينها، أنا لم أنظر إلى ذاتي في المرآة، لم أخبرها بأني فعلت أقصى وأحسن ما عندي؛ لأن النهاية جاءت مُسرعة، كأن الأرض تشتاق لأن تَدور حول الشمس وأنا لست بها".

فُتحت أعينهم، الشَمس تُحدق بهم حتى تُملي عليهم ضوءها، لا يدرون هل السماء أصبحت بعيدة عنهم؟ أم أنها كانت بهذا البعد طيلة الوقت وهم لم يدركوا ذلك إلا الآن؟!

ملامحهم أصبحت أكثر فوضوية، انتقالهم بالزمن جعل وجوههم أكثر حدة، أكثر صلابة، لكن أعينهم كانت تقول عكس ذلك، وأن حياتهم أصبحت على المحك وهم لا يودون تصديق ذلك.

فإذا وددت أن تُنهي حياتك بكامل إرادتك، على الأقل ستكون أقل حُزنًا من شخص أُجبر على نهاية لا تليق به، على أن يَترك الحياة دون أن يضع بصمته الخاصة، دون أن يَذكره الناس.. أن يتناساه الناس.

بدأت عقولهم تتقبل الصَداع الناتج من هذا الضوء فسُرعان ما هدأ وعادوا إلى وعيهم مُجددًا، صوت الأمطار توقف تمامًا والشمس أصبحت أكثر حدة من وجوههم، نهضت (رشا) من موضعها وهي تَشعر بأنها سيغشى عليها مُجددًا، لكن تلك المرة ليس من الصُداع.. إنما من مرض السُكري الموجود في دمائها، وَضعت يدها في جيبها الداخلي لكنها لم تَجد الحقنة الخاصة بها، نَظرت إلى (صلاح) الذي لازال على الأرض غير قادرٍ على فتح عينيه وودَت أن تُخبره بذلك، وهو أن الغيبوبة قد تأتيها في أي لحظة وأنها قد تموت، إلا أنها لم تقل ذلك وأيقنت أنها ستعود مرة أخرى إلى وعيها الكامل.

نَهضت (لارا) من موضعها، فوجدت شخصًا ما على مسافة بعيدة يقترب منهم، لم تستطع رؤيته لكنه كان شخصًا ذو لحية بيضاء، هذا فقط ما تستطيع رؤيته، كان ينظر لهم وهو مُبتسمًا واقترب منهم فوجدهم لازالوا فاقدين لوعيهم، حتى أنه توقف أمام (لارا) ولم تستطع معرفة ذلك الوجه لأنها لم ترَه بشكل كُلي.

- كُنت أعلم أنكم ستأتون الآن.

نَظر (صلاح) بدقة إلى وَجه الرجل فوجده (الشيخ يوسف)، أول من رأوه عند انتقالهم الأول في الماضي، ابتسم لهم وأخبرهم:

- لقد انتهى كُل شيء ولن تعودوا مُجددًا، مَرحبًا بكم في الماضي.

لم يَفهم (علي) كلماته، فنظر له بغضب وهو ينهض:

- ماذا تقول؟! كيف؟ وكيف لك أن تعرف ذلك أصلًا؟!

- سأجيبك على كُل شيء بمُجرد أن تهدأ، لقد انتهى كُل شيء صدقني.

كانت ملامح الرجل تَدل على أنه لن يؤذيهم، بشوش للغاية ووجهه مُريح لأعصابهم.. إلا أن (علي) لم يثق به؛ لأن كُل ما حدث يُخبره ألا يثق في أحد. جَلس الشيخ أمامهم على الرمال قبالة الكهف:

- هذا المكان لم يعرف أحد سبب وجوده، لكن مُنذ أجدادي وهم يسمعون صوت الصحراء تهتز مرة على الأقل في حياتهم، وبعد أن تهتز يجدون رجالًا ونساءً غُرباء أمامهم بملابس غريبة، وحدث ذلك مرتين فقط في الماضي، مَرة في القرن الماضي تحديدًا عام ١٨١٧، ومَرة أخرى مُنذ قرنين.

اعتدل (يوسف) في جلسته، ثم أردف:

- في وَصف أحد الأشخاص الموجودين في كتابه "ليالي الصحراء في الكهف المُضاء"، وَصف رَجلين وامرأتين،

وكان هذا الوَصف ينطبق عليكم تمام الانطباق، كان الوصف يشمل ملابسكم هذه، حتى حديثهم مع الشيخ الغائب (مُحمد بن يعقوب بن الفراس) الذي لم يعرف أحد أين هو حتى الآن.

فكّر (صلاح) في أن يسأل الشيخ "ألم يكن معنا شخصٌ خامس؟"، لكنه تذكر أن (حاتم) لم يَخرج من الكهف أثناء حديثهم مع الشيخ (الفراس).

أردف الشيخ:

- وفي كُل عام، كما ظهرتم في شهر (صفر) مُنذ مائة عام، وشهر (نوفمبر) بالتاريخ الميلادي، ننتظركم مرة في شهر (صفر) في اليوم الذي ظهرتم به والذي كان موافقًا يوم (٧) في شهر صفر، قُمنا بانتظاركم لكنكم لم تأتوا، في كُل عام ننتظركم في ذلك اليوم، حتى أن كثيرًا منا لم يقتنع بما كَتبه (ابن ضاحي) في كتابه الذي أخبرتكم به، ذلك الكتاب يُخبرنا أنكم من المُستقبل، كان يَقص علينا ما قمتم به معهم حينما كانوا يقومون بالتواشيح خاصتهم، وأخبرنا بأنكم دخلتم الكهف واختفيتم ولم تعودوا مُجددًا، وتنبأ بأنكم ستعودون في نفس اليوم بعد مئة عام، وهذا حدث بالفعل مما جعل الناس يتأكدون أنكم ستظهرون بعد مئة عام أخرى، وهذا ما حدث بالفعل مُنذ أربعة أيام، ظهرتم مُجددًا لنا.

أخذ الشيخ أنفاسه ثم أردف:

- بعد أن فكَرنا في كُل الاحتمالات المُمكنة وأن الأشهر الهِجرية تختلف في ترتيبها عن الشهور الميلادية، لذا فكرنا أن ننتظركم في شهر (نوفمبر)، وبالفعل.. ها أنتم أمامي مُجددًا.

ابتسم الشيخ شاعرًا بالانتصار أنه رآهم مُجددًا، ثم قال:

- الوَصف ينطبق عليكم تمامًا، عجيب (ابن ضاحي)! تَحدث عنكم باستفاضة وتَذكر أشكالكم كما لو أنه كان يعرفكم مُنذ سنوات.

- كلامك عظيم يا شيخ، لكن لماذا نحن هُنا؟!

مُحيت ابتسامة الشيخ وحلّ بدلًا منها نظرة فاترة لـ(علي)، وأجابه:

- لا أحد يعرف، لكن (ابن ضاحي) ذكر في كتابه أن أجدادكم اختفوا في ظروف غامضة بعد رؤيتكم، وذكر أيضًا أنه كان على علم بأن الشيخ (الفراس) سيذهب لحرق الكهف هذا، لكنه لم يعد أبدًا هو ومن كانوا معه، لذا ظنوا أنـ....

- لماذا وَدوا حرق الكهف؟!

قالتها (رشا) وقد لمعت عيناها من شدة الانتظار لسماع الإجابة، فابتسم الشيخ:

- أخبريني.. لو استيقظتِ غدًا ووجدتِ بوابة تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل أمام منزلك، هل ستسعدين بذلك؟!

- بالطبع لا، لكني لن أصمم على حرقها! وأيضًا ما سِر الأبيات التي بمُجرد أن تقال تهتز الصحراء؟

ازدادت ابتسامة الشيخ اتساعًا:

- لقد عَرفتم الأبيات؟ حَسب ما قال (ابن ضاحي)، تلك الأبيات ألفها الشيخ (الفراس) ليحتموا بها من لعنة الكهف.

اقترب الشيخ منهم قليلًا، نَظر حوله ثم قال بهدوء:

- سأقول لكم سرًا، (ابن ضاحي) كان يُشكك في حديث (الفراس) ويراه مخبولًا ليس إلا، فـ(الفراس) في مرة استيقظ وأخبر الجميع أن الشيطان هو من يعيش في ذلك الكهف، وأنه جاءته رسائل خفية في أحلامه بأنه سيموت بعد أن يقطع الشيطان قدميه إذا فكر مُجددًا في حرق الكهف.

هُنا فغر فاههم جميعًا ونَظروا إلى بعضهم بخوف شديد، ضحك الشيخ وهو يقول:

- أتصدقون ذلك؟! الشيطان بذاته يعيش في كهفٍ كهذا؟! والأغرب أن الفراس قال لهم بأن الشيطان يتوعد له بأنه

سيقتل أحفادهم وسيقطع نسلهم بالكامل إذا اقتربوا من الكهف.

نَظر (يوسف) بهدوء إلى ملامحهم التي تحولت إلى ملامح سيطر عليها الرُعب والخوف، حتى أنه وجد يدا (علي) قد بدأت في الارتعاد بطريقة غير إرادية:

- لكن (ابن ضاحي) قال شيئًا يَدعو إلى التعجب وهو أنتم! كان يعلم بأنكم أحفاد (الفراس) و (الصفتي) و (أبو البِر) و (الرزاز)، فكيف عُدتم بالماضي؟!

ابتسم (يوسف) لهم وقد نَهض من موضعه:

- لقد كانت رحلة سعيدة.. صدقوني.

نَظر لهم وقد تحولت ملامحه الطيبة البشوشة إلى ملامح مُرعبة حقًا، ظهرت أسنانه في ابتسامة غريبة وعينان واسعتان تُنذر بكل ما هو سيئ، استدار (يوسف).. فصَرخت (رشا):

- من أنت؟!!

توقف (يوسف) عن السير وقال دون أن يَنظر لها:

- أنا لا أحد، هُناك حل واحد فقط للخروج من هذا المكان وهذا المأزق.

في تلك اللحظة اختفى (يوسف) عن الأنظار، لم يعد موجودًا مرة أخرى أمامهم، وتذكرت (رشا) ذلك الحديث..

- مساء الخير، أأنتِ (رشا)؟

- نعم أنا.. من حضرتك؟!

كان صوت أنثوي مُتهدج وخائف، صوت تعرفه جيدًا لكن لا تعرف من هو صاحبه:

- أنا اعلم ما تمرين به، أعلم أنكِ تفكرين في الانتحار الآن بإلقاء نفسك من مكانٍ عال، خطة ذكية لكنها غير مُجدية.

نهضت (رشا) من موضعها، ازدادت ضربات قلبها بمعدل زيادة عن الطبيعي، ازدردت ريقًا جافًا ثم ردّت:

- من أنتِ؟!

- أنا لا أحد، هُناك حل واحد فقط للخروج من هذا المكان، من هذا المأزق، سأرسل لكِ إحداثيات مكان كوني بها بعد ربع ساعة من الآن، إما هذا.. أو أنكِ لن تكوني في مأمنٍ أبدًا.

لم تستطع الرد كأن هُناك من قبض لسانها، جل ما تفكر فيه، من هذه المرأة؟!

في تلك اللحظة فقط أدركت أن كُل ما حدث لم يكن محض صدفة، لقد جاءوا هُنا لينتقم منهم الشيطان.. أو بالأحرى، لينتقم من أجدادهم. نَظرت إلى السماء فوجدت الشمس تُزيد من ضوئها فأدركت أنهم سيعودون مُجددًا إلى الحاضر، بمُجرد أن فكرت في ذلك.. جاء الضوء ليجتاح أنظارهم جميعًا، وسقطوا على الأرض واحدًا تلو الآخر.

***

الساعة الأخيرة
(ساعة مع الشيطان)

"لا تصدقوني!! أنا أعلم.. حتى أنا لم أصدق ما حدث إلا حينما رأيت ما حدث لنا".

بمُجرد أن فُتحت أعينهم وَجدوا أنفسهم داخل الكهف يُحدقون في سَقفه المُضيء بنورٍ غريب يُضيئه بأكمله، أتلك هي النهاية؟ سيموتون جميعًا بتلك البساطة كما مات (حاتم) دون أي مقاومة؟!

كانوا على علم بأن المُتبقي من حياتهم جميعًا مُجرد ساعات، لكن كيف ستنتهي؟ هل ستنتهي بهدوء شديد كما انتهت حياته؟! أم ستنتهي بطريقة دموية كما انتهت حياة أجدادهم في الماضي؟! لا يعلم أحد.

نَهض (علي) أولًا وهو يَستمع إلى صوتٍ في الكهف يَتردد:

ـ ما الخطيئة الأكبر التي قُمت بها؟!

كان صدى الصوت يثير الرعب في الأنفس، من الواضح أن مُهمة نقل الرسائل انتقلت من (حاتم) إلى (علي) الذي أصبح يَرى ما لا يراه الآخرين ويستمع إلى الرسائل الخفية والأصوات الغريبة، كان يعلم (علي) أن الخطيئة الكُبرى هي قتله لزوجته دون رحمة، أطلق عليها الرصاص بمُسدسه، لكنها كانت تستحق ذلك، نَظر لهم جميعًا فوجدهم ينظرون له بريبة، لم يفهم لماذا يَنظرون له بتلك الطريقة، لكنه وَجد نفسه يحمل سكينًا مُلطخًا بالدماء دون أن يدري، ألقاه سريعًا بعيدًا عنه وأخبرهم:

- لا أعرف كيف وَصل إلى يدي!

تَردد الصوت مُجددًا، السؤال يَتكرر في أنحاء الكهف وهو الوحيد الذي يستطيع سماعه، رُبما أن الحل في الإجابة على ذلك السؤال.. أنهم على الأقل سيفهمون هل هو يَنتقم منهم فقط؟ أم يود اللعب معهم؟ أم يود منهم شيئًا وهذا ما اقترحه (علي) في ذهنه.. فهو لم يحميهم كل هذه الفترة ليقتلهم فقط!

نَظر لهم جميعًا وتحدث بصوتٍ هادئ:

- الكهف يُريدني أن أسألكم، ما هي الخطيئة الأكبر التي اقترفتموها في حياتكم؟

بمُجرد أن سأل السؤال هدأ الصوت تمامًا.. ففَهم حينها أنه كان يود منه أن يسألهم ذلك السؤال، لم يتوقع أحد منهم أن الشيطان هو وراء كُل ذلك، الشيطان! يالها من كلمة ثقيلة على القلب وتَدب الرعب في الأنفس، أخذ (علي) نفسًا عميقًا ثم وَجد (لارا) تُخبره:

- لقد قتلت مُديري في العمل، كان يود مني أن أُكمل في هذا العمل الذي دمر حياتي.. لكني رفضت فهددني بالقتل، إذا تركته سيقتلني، لم أفهم لِمَ فعلت ذلك، قتلته وهشمت رأسه ثم هربت، حينذاك جاءني اتصال من فتاة ما..

- لم يكن من فتاة ما.. كان منه.

قالتها (رشا) ناظرةً إلى الأرض، فاستطردت (لارا):

- ثم جئت إلى هُنا، ومن الواضح أنني سأموت هُنا أيضًا بعدما رأينا ما رأيناه.

أومأ (علي) برأسه، فهو لا يود معرفة أي شيء من هذا لكن الكهف يُريد فلم يكن يستمع باهتمام، نظر إلى (رشا) فاعتدلت في جلستها وهي لازالت تشعر بتعبٍ شديد:

- خطيئتي الكُبرى أنني رأيت فتاة صغيرة تغرق ولم أنقذها، كُنت أخاف الماء ولازلت، رأيتها تغرق أمامي وتستنجد بالناس لكن لم يسمعها ولم يرَها أحد غيري، لم أستطع إنقاذها فغرقت بعد دقائق.

سَقطت الدموع من عينيها بهدوء شديد، وقالت:

- أنا لم أسامح نفسي، وأظن أن ما يحدث لي الآن بسبب أنني لم أنقذها.

أطرق (علي) رأسه أرضًا، فوضع (صلاح) يده على كتفها ليُطمئنها.. فابتسمت له رغم ما تشعر به من تعبٍ وخوف.

- (صلاح)، الآن دورك.

أومأ برأسه ثم نظر له وتحدث:

- لقد قتلت اثني عشر فردًا بالخط....

- لا، نحن نعرف هذا.

قالها (علي) بملل، ففكّر (صلاح) مُجددًا وقال:

- لقد نمت مع امرأة وهذا عاديًا، غير العادي أنها كانت مُتزوجة.

ركّز (علي) في تلك القصة، نَظر له وهو يُدقق في تفاصيل ما يرويه (صلاح):

- لقد تعرفت عليها في الجامعة، كُنت أحبها بشدة لأنها لم تكن مثل أي امرأة أحببتها، لكنها تزوجت وتركتني وحيدًا، هي التي كُنت أحكي لكم عنها أمس، بعد أن تزوجت وددت أن أُفسد حياتها تمامًا، كانت تعمل في وكالة للسيارات فذهبت لها وبالفعل استطعت أن أنام معها بعد إلحاح مني، نمت معها مرتين مرة عندي ومرة عِندها، كُنت أود الذهاب لها لأرى زوجها حتى ولو صورة له، لكنها استطاعت إخفاء كُل صوره وألا أعرفه حتى، وبمُجرد أن انتهيت معها.. كان زوجها قد دخل باب شقتهما، لم أرتدي كُل ملابسي عن قصد وتَركت

بنطالي وقميصي بجوارها وقفزت من النافذة التي لم تبتعد كثيرًا عن الشارع، وبمُجرد أن نزلت واستقليت سيارة بصدرٍ عارٍ وملابس داخلية فقط، سمعت صوت الرصاص يُدوى... لقد انتقمت منها بطريقتي.

ابتسم (صلاح) وقال:

ـ هل أشعر بالندم لأنها ماتت؟! بالطبع لا.. لكني أشعر بالندم على زوجها الذي من المُحتمل أن يكون قد مات الآن من حسرته.

نَظر (علي) إلى (صلاح) بعينين قُتلوا من فرط الصدمة، لقد كان (صلاح) هو من نام مع زوجته، نَظر إلى الأرض فوجد أن الدماء التي كانت على السكين لازالت بيده، إنها النهاية حقًا.. إن الشيطان كان مُحقًا.

ـ وأنت يا (علي)، ما هي خطيئتك؟!

نَظر إلى (صلاح) بوجهٍ حاد وجامد، يُحاول ألا يُظهر علامات الصدمة لكنه فشل في ذلك، ابتسم إلى (صلاح) باصطناع:

ـ خطيئتي الكُبرى هي أنني قتلت زوجتي يا (صلاح)، زوجتي التي نمت أنت معها.

ضحك (صلاح) ساخرًا:

ـ يا رجل، تحدث بجدية.

لازالت ابتسامة (علي) على وجهه حتى أنها تحولت إلى ضحكات هستيرية، نَظرت (رشا) إليه بخوف وأخبرته:

- (علي).. ما الذي يَحدث؟!

لم يتوقف عن الضحك، لكن تلك الضحكات اختلطت بدموع الحسرة والحزن، نهض من موضعه وهو يَتجه إلى هدفٍ يعرفه جيدًا، أخذ (علي) السكين الذي رآه في يده:

- (علي)، لو كان حديثك صحيحًا فهو يود منا أن نفعل ذلك.

قالتها (لارا) برُعب حقيقي، نَهضوا جميعًا من مكانهم ونظروا إلى (علي) الذي تحولت ملامحه إلى شخصٍ مُتعطشًا للدماء، أمسك السكين في يده...

- إنه يود منا أن نقتل بعضنا، لا تفعل ذلك.

قالتها (رشا) ثم اتجهت إلى (صلاح) لتحميه.

- كُلنا أخطأنا فدع الماضي جانبًا.

قالتها (لارا) وهي خائفة من أن يفعل (علي) ما يود فعله:

- لا تفعل ذلك.

- ابتعدا..

نَظر لـ(صلاح) وقد شُتت عقله، ابتسم له بأعين جاحظة واقترب منه، لكن (صلاح) في نفس الوقت أبعد (رشا) عنه وتراجع قليلًا حتى أخذ المُسدس الذي كان مع أفراد الشرطة، ووجهه إلى (علي):

ـ أنا لن أقتلك.. لكن لا تضطرني لذلك، أنا لم أعرف أنها زوجتك.

لم يَتحدث (علي)، بل نظر له بغضبٍ شديد:

ـ اتركني أذهب ولن تراني مُجددًا.

هز (علي) رأسه نافيًا، في تلك اللحظة حاولت (لارا) أن تتحرك حتى تضربه من الخلف لكنه لمحها:

ـ لو اقتربتِ سأقتلك.

اقترب (علي) من (صلاح) دون خوف من أن يُطلق النار عليه:

ـ ابتعد يا (علي)..

لكنه لم يبتعد وظل يقترب منه.

ـ لآخر مرة.. ابتعد.

لم يبتعد واقترب أكثر حتى وَصل أمامه، فقام (صلاح) بالضغط على الزناد لكنه لم يكن به أي رصاص، في تلك اللحظة فقط أيقن (صلاح) أن الشيطان قد نجح بمُجرد أن رأى (علي) يَغرس السكين في ظهره وفي معدته، صَرخت (لارا) صراخًا شديدًا هز الصحراء بأكملها، لم يتوقف (علي) عن غرس السكين في ظهر (صلاح) الذي انكبّ على وجهه، كأن الرجل قد تغير تمامًا.. تلطخ وجهه وملابسه بالدماء كاملةً.

مات (صلاح) بعد أول ضربة بالسكين في معدته، خَرجت الدماء منه وانبعثت كصنبور لم ينغلق، سَمعت (لارا) صوتَ رصاصة تَخرج من مُسدس التقطته (رشا).. وقد توجهت تلك الرصاصة إلى رأس (علي) وانفجر رأسه تمامًا.

نَظرت (رشا) إلى هذا المنظر، الدموع لازالت في عينيها لكنها لم تعطِها أهمية، ضحكت بشدة وكأنها قد جُنت مثلما جُن (علي)، ضحكت والدموع لازالت على وجنتيها ووَجهت المُسدس إلى رأسها ثم أطلقت الرصاص على نفسها لتتحول أرضية الكهف إلى بُحيرة من الدماء، ليتم تنفيذ ما وُعدوا إياه، أن كُل شيء انتهى.

كانت (لارا) تقف في كُل هذا تصرخ فقط، تَصرخ وتضع يديها على فمها، يخفق قلبها وكأنها ستموت بأزمة قلبية مما رأت، جلست على الأرض وهي تبكي، ترى (صلاح) والدماء تنبعث من فمه ومعدته، وبجواره (علي) الذي تهشمت رأسه وقُتل في الحال، أما (رشا) فتوقفت عيناها على (لارا) التي لم تُصدق أي شيءٍ مما يحدث حولها.

انتهى كُل شيء، الدماء تُغطيها بالكامل، لا تستطيع التفرقة بين دمائهم التي اختلطت بعضها ببعض، نظرت إلى جُثثهم بخوف شديد، لِمَ هي الوحيدة التي لم تمت؟!

- اقتلني، أرجووووك اقتلني...

قالتها بغضب رغم البكاء وما تشعر به من خوف، لكنها كانت خائفة بشدة مما قد يحدث لها، في تلك اللحظة سَمعت صوتًا يَخرج من داخل الكهف، صوتًا تعرفه جيدًا:

ـ وكيف لي أن أفعل ذلك؟!

التفتت (لارا) إلى مَصدر الصوت، تأخذ أنفاسها بصوتٍ عال حتى لا يجعلها تستمع جيدًا لما يدور، نَظرت فوجدت آخر شيئًا توقعت أن تراه في تلك اللحظات.

وَجدته يرتدي حُلة سوداء اللون، القميص ورابطة العنق والحذاء كان لونهم أسود، أنيقًا بحق يُفتن النساء، على وجهه ابتسامه تجعلك تقع في حُبه على الفور، خَرج من الظلمات واتجه إليها ثم توقف أمامها.

قالت وهي مشدوهة:

ـ (حاتم)؟!

ابتسم لها بهدوء ثم نَظر إلى الجُثث الموجودة أمامه فقال:

ـ هل تظنين أنها النهاية حقًا؟!

نَهضت (لارا) من الأرض وهي مُحملقة به، سألته وقد ذهبت ملامح الحُزن من عينيه:

ـ من أنت؟!

ـ ألا تعرفيني؟!

ـ أنت لست (حاتم)!

تجاهل ما تقول ونَظر إلى الكهف الغارق في دمائهم، ثم قال:

- أنا لا أود لهذا الكهف أن يكون بهذه الهيئة، إنه بيتي مُنذ عقودٍ طويلة.

خَرج (حاتم) من الكهف فتبعته (لارا) بخُطى عمياء، توقف في الصحراء والضوء قد سُلط عليه.

- أخبرني.. من أنت؟!

نَظر لها والسخرية قد حُشدت في عينيه، ثم قال:

- لقد تركتكِ حية لأنكِ ذكية، لا تجعليني أعيد النظر.

لم تود أن تُصدق في بداية الأمر أنه هو.. لكن كل شيء يُشير إلى ذلك، لقد كان معهم طيلة الأمر، يُتابع خطواتهم ويَستمع لأفكارهم، هو الوحيد الذي توقع المُستقبل وكان على علم بكل ما حدث، هو الوحيد الذي مات ميتة طبيعية، هو الوحيد الذي لم يقم بأي شيء هام ولم يكن له دور.. والأعجب، أنه الوحيد الذي لم يكن له جَد! لقد كان عدد الشيوخ الذين ماتوا أربعة ولم يكن واحدًا منهم أبدًا!

- أنت! أنت الشيطان!

- أنتِ تسيئين الفهم، يقولون عني هذا لكي يخيفوا الصغار مني.

- إن كل شيء يقول أنك هو.

- هذا حقيقي، كُل شيء يقول أنني موجود.

نَظر إلى الكَهف مُجددًا فقال:

- لقد عاد البيت كما كان.. هيا لندخل.

دَخلا الكهف مرة أخرى فوجدته (لارا) قد أصبح نظيفًا جدًا كأنهم لم يكونوا به يومًا، حتى جثث أصدقائها أصبحت بجوار بعضها وقَد نُظفت تمامًا من الدماء، كأنهم في كابوس وسيمر:

ـ لقد كُنت معنا لتعرف تفكيرنا، لتعرف ما الذي سنقوم بفعله.

ـ لا.. أنا كُنت معكم لأني أحب أن أكون معكم، أنا أعرف من أنتم وأعرف تفكيركم.

ـ إذًا لماذا فعلت بي كُل هذا؟!

ـ أنتِ تسألين السؤال الخاطئ.. أنا لم أفعل بكِ شيئًا بعد.

غمز لها بعينه فأدركت أنها مُقبلة على الجحيم.. وأن حياتها ستنتهي بأسوأ طريقة ممكنة.

ـ لكني لا أود منكِ الخوف، إنكِ معي الآن.

اقترب منها ووَضع يده على شعرها كما فعل من قبل، ثم قال:

ـ أنتِ تُشبهينني.. لقد لاحظت ذلك، لم تكوني يومًا بهذا السوء الذي أصبحتِ عليه الآن.

ـ أنا لا أشبهك.. ولن أشبهك.

قالتها بشجاعة لاحظها في عينيها، ما الذي ستخسره؟ حياتها؟ ستخسرها بعد دقائق من الآن ـ كما تظن ـ، فتَخسرها بشجاعة.. أم بجُبن وخوف يقضي على حياتها قبل الآوان!

ـ مسكين من يظن أنني سيئ، أتعلمين ما فعل بهم هكذا؟ هم.. هم من فعلوا هذا.

- لقد كُنت السبب الرئيسي.

- من المُحتمل، لكن أنا لم أقتل أحدًا مُنذ أن جئت هذا البيت.

- إنه كَهف.. وسيظل هكذا دومًا.

هُنا نَظر لها وقد مُحيت ابتسامته الأنيقة، نَظر لها وقد حملت نظراته تهديدًا صغيرًا وقال:

- أنا لن أجعلك تموتين.. لكني سأجعلكِ تنظرين إلى نفسك على حقيقتها.

عادت ابتسامته مرة أخرى ثم نظر إلى الكهف والضوء يزداد فيه:

- هل الجحيم حقًا سيكون بهذا السوء؟!

صمتت.. لم تستطع أو لم تقوَ على الرد، كأنها تود أن تستمع لما يدور في ذهنه، نظر للجثث الثلاث الموجودة أمامه:

- انظري لهم.. هل تَرِي أنهم سيحتملونه؟!

- أنت الشيطان.. لست أنا.

- أخبرتكِ أنني لست كذلك..

- من أنت إذًا؟!

- من المُمكن أن تدعيني بالملاك لكنه أخطأ في تصنيفي.

ازدادت ابتسامته اتساعًا، فاقترب منها:

- أتعلمين لماذا أحب هذا المكان؟! لأنه يُشبهني، يُحاربه الجميع مُنذ قرون ولازال كما هو، يُدمر فقط من يقترب منه. أما أنا.. فأقترب منكِ.

يضع يده على شفاها فتنظر له بازدراء، وتقول:

- أليس ظُلمًا ما فعلته بهم؟!

وأليس ظُلمًا ما فعلوه بي؟!

ما يفعله بكم! إنكم تسيرون على خط رُسِم قبل ميلادكم، نهايته معروفة له وليس لكم.

بدأت ملامحه تحتد لكنه استطاع السيطرة على ذاته، وقال بهدوء:

- لقد حميتكم من كُل الشرور، الشُرطة لم تقترب من هذا المكان بعد ما فعلته بهم. وبعد كُل هذا تقولين أني ظلمتكم!

دقق النظر في عينيها فلم يجد سوى بريقٍ ينطلي منها:

- لقد أحببتكِ.. لِمَ لا تُصدقين هذا؟!

- لأنك لا تُحب أحدًا سوى ذاتك.

ضحك بصوتٍ عال، وقال بين ضحكاته:

- أنتِ مُحقة.. مُحقة كُل الحق.

ابتعد عنها قليلًا ثم عدّل ياقته وقال دون أن ينظر لها:

- لكي أثبت لكِ أن الحُب متبادل.. بمُجرد أن تَخرجي من هذه البوابة ستجدين عالمًا مُختلفًا تمامًا عن عالمك، فُرصة جديدة لحياة جديدة أنتِ في أمسّ الحاجة لها.

اتجه مرة أخرى إلى البقعة السوداء الموجودة في نهاية الكهف، فسألته:

- إلى أين تذهب؟!

نَظر لها ثم ابتسم:

- أنا لن أذهب.

قال تلك الكلمات ثم اختفى كما لو أنه لم يكن موجودًا أبدًا، نَظرت إلى الجُثث الموجودة في الكهف وخرجت منه وهي لا تُصدق أنها خرجت على قيد الحياة، لكنها كانت تعلم بأن حياتها لن تعود كما كانت، على الأقل.. لن تعود تلك الفتاة التي عرفتها طيلة حياتها الماضية.

نَظرت إلى الكهف نَظرة أخيرة ثم رَحلت.

***

اليوم الأخير
(ليلة مع الحياة)

ظَلت تَركض حتى لم تعد ترى الكهف، ضوؤه البرتقالي الغريب لم يَعد يَصل إلى عينيها، تَركض وأنفاسها تتقطع، تَشعر بأنه لازال يُراقبها ولا يود لها الرحيل الآمن، مُتأكدة أن ما يحدث لها ما هو إلا مَحض تخيلات منها.. بالتأكيد لم يتركها الشيطان تَرحل بتلك البساطة، فهو ليس خيّرًا ليفعل ذلك.. لكنها رأت ما جعلها تبتسم.

رَغم كُل ما رأته وكُل تلك الآلام والأحزان، نَظرت أمامها فوجدت السيارات على بُعد أمتار عنها، ابتسمت وشعرت بأن الأمل يعود لها مُجددًا حتى أن من فرط سعادتها بدأت في البُكاء، رَكضت حَتى وَصلت إلى الشارع، رأت العديد من السيارات وكأن وَعده يَتحقق لها مُجددًا بأنها قد تكون "فُرصة جديدة".

على الرغم من أن هُناك العديد من الأسئلة التي لم يتم الإجابة عليها، إلا أنها كانت على علم بأنها إذا جَلست واستراحت قليلًا ستصل إلى إجابات مُقنعة بعدما وَصلت إلى نهاية اللغز وأن الشيطان

كان معهم طيلة الوقت.

وَقفت للمرة الأولى مُنذ أيام على شارع حقيقي، افتقدت ألا تَغرق قدميها في الرمال، وألا تَشعر بحرارة الرمال تُصعر قدميها، ابتسمت بعدما أدركت أن الحياة لم تكن بهذا السوء طيلة الوقت.

لكن كيف؟ كيف نسيت ما حَدث مُنذ ساعات؟! هي في الحقيقة لم تنسَ.. لم ولن تنسَ، فأنت لا ترى كُل يوم أشخاصًا يقتلون أنفسهم أو حتى يقتلون بعضهم بعضًا، لكن يجب أن نُعطى لأنفسنا هُدنة حتى ولو لدقائق لنستطيع مواصلة الحياة.

قامت بإيقاف سيارة أجرة فلاحظت أن شكل السيارة قد اختلف تمامًا عما كان، هُنا طَرق في ذهنها سؤالًا لكنها انتظرت حتى تَقف السيارة.

كانت هيئتها مُزرية حقًا، ملابسها مُلطخة بالدماء ووجهها مُمتلئًا ببقايا الرمال، فنَزل السائق من سيارته مفزوعًا وهو يسألها:

- يا ابنتي، هل أنتِ بخير؟!

اقترب منها وهو يَنظر إلى عينيها، فابتسمت له وأخبرته:

- أنا بأحسن حال.. بأحسن حال.

لكنها في اللحظة التالية فقدت الوعي، حاول السائق إفاقتها لكنه لم يستطع فوَضعها في السيارة من الخلف واستقل سيارته حتى وَصل بها إلى المشفى.

قامت المَشفى بإخراج سَريرًا مُتحركًا وقاموا بنقلها عليه حتى استفاقت ووجدت نفسها في مَشفى والمُمرضة تقف أمامها، بمُجرد أن فتحت عينيها ابتسمت المُمرضة:

ـ حمدًا لله على سلامتك..

تَحركت المُمرضة وقامت بإبلاغ الطبيب أنها استفاقت، فأتى الطبيب وعلى وجهه ابتسامة كبيرة:

ـ بطلتنا الشابة، بماذا تشعرين الآن؟!

ـ لا شيء.

نَظرت (لارا) بجوارها لكنها لم تَجد أحدًا في الغرفة سوى الطبيب والمُمرضة، حاولت تعديل جَلستها لكنها لم تقوَ على ذلك، كانت مُرهقة ومُتعبة بحق، اشتاقت للنوم على مرتبة طبيعية مثل البشر، فالنوم على الحصيرة وفي أرض الكهف غير المستوية كان يؤلم ظهرها بشدة، في تلك اللحظة خطر ببالها السؤال:

ـ ما تاريخ اليوم؟

نَظر الطبيب لها ببلاهة:

ـ ٢٥ نوفمبر.

ـ والسنة؟!

نَظرت المُمرضة لها بتعجب، فأجابها الطبيب بهدوء:

ـ ٢٠٢٧!!

لم تتعجب (لارا)، كانت مُتوقعة شيئًا كهذا وأنه لن يتركها مرة أخرى تعود لزمنها الأصلي، تأكدت شكوكها من أن هذا الكهف يمتلك القُدرة على التحكم في الزمن.

ابتسمت للطبيب، فقام بسؤالها:

- ما الذي حدث لكِ؟!

كان يعلم أنه لا يحق له أن يسأل مثل هذا السؤال، لكن هيئة الفتاة.. مَنظرها المُتعَب وكيانها الشارد، أثار فضوله أن يعرف كيف جاءت هذه الدماء كُلها على ملابسها، وما استفز فضوله هو سؤالها عن السنة، نَظرت إلى سقف الغرفة ولم تنطق، فأيقن الطبيب أنها لا تود الحديث.

- أود النوم فقط..

بعد أن قالت تلك الجُملة أغمضت عينيها ثم نامت.. نامت كما لم تنم من قبل، تَركها الطبيب والممرضة وحيدة في الغرفة وعلى وجهها ارتسمت علامات الرضا.. الأمل.. بأن النهاية لازالت لم تُكتب بعد!

النهاية

مع تحيات – واحدة من ضحايا الحادث الحقيقي -:

سماح الرزاز

• **ملحوظة:**

"كُتبت تلك الرواية بصيغة الراوي العليم ليس في محاولة مني لتضليلكم.. وإنما أيضًا لأجعلكم تشعرون بالصدمة التي شعرت بها، تلك الرواية تُلخص الأيام الخمسة الأصعب في حياتي، وبعد أن نصحني طبيبي المُعالج بأن أكتب ما حدث لي في رواية.. وددت أن أعرضها بشكل يجعلهم يصدقوني، لا يُصدقني أحد، وأنا لست في حاجة لأن يُصدقني أحد.

أشكركم على إضاعة وقتكم الغالي في قراءة حكايتي البائسة، أقسم لكم أنني لم أكذب في حرفٍ واحد.

• 21 نوفمبر 2030

"أوراق لم أضفها إلى روايتي".

اليوم، حسب عُمري الحقيقي مرّ على أيام الكهف ثلاث سنوات، أما حسب التاريخ فمر عليه عشرة أعوام، لكن هذا لا يُشكل فارقًا كبيرًا، في نهاية الأمر أنا هُنا.. في هذا المكان.

أتممت اليوم ثلاثة أعوام في مَصحة نفسية أُعالج، هؤلاء المخبولين يَظنون أنني مجنونة وأن كُل ما حدث قد اختلقه عقلي اللاواعي.. بالطبع أنت الآن تَظن أنني كذلك، وبحديثي هذا أُأكد لك شعورك.

المجنون هو وحده من يظن أن المحيطين به هم المجانين وهو الشخص الأكثر عقلانية، لكن صدقني، أنا لست مجنونة أبدًا، وكما كتبت في المُلاحظة الموجودة في حكايتي، نصحني طبيبي المعالج بأن أكتب كُل ما حدث لي في رواية.. أنا أعلم أنه لا يُصدقني أيضًا لكنه يُحاول تخفيف الحمل عن عاتقي.

ثلاثة أعوام.. ثلاثة أعوام وأنا أعاني من وِحدة شديدة، ولتصرفي العقلاني يَسمحون لي بالخروج يومين في الأسبوع وأعود مُجددًا، نَسيت أن أخبرك أنهم الآن يَهتمون بشكل أساسي بالعلاج النفسي، حتى أنني لم أرى أي سلبيات في تعاملهم معي عدا أنهم لا يُصدقونني فقط.

على الرغم من أن حياتي قد دُمرت، لم يعد لي أحد في الخارج لينتظرني كُلما أخرج. لأكون صريحة معك، فأنا لم يكن لي أحد يومًا لينتظرني في الخارج، حياتي لم تتغير كثيرًا لكنها دُمرت فقط.

أنت الآن تبتسم، شعورك بأنني مَجنونة يؤكد، لكني سأثبت لك وسأثبت لهم أنني لست كذلك أبدًا، في الوقت الذي أكتب لك تلك الورقة، وللمرة الأولى بعد ثلاثة أعوام.. وَجدت (حاتم) يَقف بجواري ويُخبرني:

ـ أنا أنتظرك.

تلك هي المرة الوحيدة التي شككت فيها بعقلي، تأكدت من أنه لم يظهر لي ولكن عقلي اختلق ذلك فقط، لكن ماذا لو كان ظهر بحق؟! وكأنه على علم بما أخطط بأنني أنوي الذهاب مُجددًا للكهف، في الليالي التي أنظر فيها إلى المرآة.. أرى أنه لم يَكن هُناك فارقًا كبيرًا بين ما يحدث لي الآن وبين ما حدث لي في الكهف، على الأقل في الكهف كان هُناك مُتعة، أحداث وأكشن لا نهاية له كُل يوم، أما هُنا.. فثلاث سنوات من الملل، من قلة الحركة والنوم لأوقات طويلة، دواءً يُعالج الهلوسة وجلسات مع معالجي النفسي.

حتى أنا شككت في نفسي، شعرت للحظات أن هذا لم يَحدث أبدًا وأنني لم أذهب إلى الكهف ولم أجرِ حوارًا مع الشيطان وجهًا لوجه، لكني هُنا فقط أيقنت أن هذا هو العذاب الذي وَدّ أن يَضعني فيه، (علي) و (صلاح) و (رشا) تألموا للحظات لكنهم الآن يَشعرون براحة أبدية، على الأقل لا يعانون من الوحدة.

ماذا قُلت؟ هل تود مني الهرب؟! وأين سأذهب إذا هَربت؟! أنا لم يعد معي أموال.. المشفى هُنا تعالجني مُقابل قيامي بأعمال التنظيف في بعض الغُرف، كسروا قعدتهم بأنه لا يصح العمل لمريض نفسي.. لكنهم لم يروا مني طيلة الثلاثة أعوام إلا كل خير، لم أتصرف تصرفًا همجيًا واحدًا.

كُنت أعمل ومُقابل جلوسي في المشفى كان معي مبلغًا من المال، مبلغًا ادخرته لشيء ما ستعرفه لاحقًا، وقد قررت أن أذهب إلى الكهف مرة أخرى.

في اليوم الذي سُمح لي بالخروج من المشفى توجهت إلى محل ما لبيع أغراضٍ ستعرفها لاحقًا، وضعت تلك الأغراض في الحقيبة واتجهت إلى سيارة أجرة، كُنت أعلم الطريق إلى الكهف.. صحراء واسعة وأسير فيها لفترات طويلة.

تعمدت الذهاب في وقتٍ باكر من النهار حتى لا يستطيع السيطرة الكاملة عليّ، فأنا لا أودّ الخضوع له بتلك البساطة.. صدقني الحل الأمثل لي أن أقوم بذلك، رَكبت سيارة أجرة وأوقفني أمام الصحراء الواسعة، هذا المنظر لم أستطع رؤيته مُنذ ثلاثة أعوام، في هذا الموضع تحديدًا كُنت أقف والدماء تسيل على ملابسي ووجهي.

لا أعلم لماذا قررت هذا القرار، العودة مُجددًا إلى الشيطان، إلى البيت الذي يَسكن فيه كما قال لي، هل سأبيع روحي له كما رأيت في الأفلام التي شاهدتها طيلة الفترة الماضية؟ هل سأخبره بأن أعمل طوعًا له وتحت يده ليتحكم في مصيري كما تحكم في مصير

الكثيرين من قبلي؟

لقد تحكم في مصيري بالفعل، أنا هُنا طبقًا لرغبته، عُدت مُجددًا لأنه يودّني أن أعود، لكنه لا يعلم ما الذي جعلني أرغب في العودة، ليس اشتياقًا له ولكني أود أن أراه للمرة الأخيرة.

أعلم بأن تلك الأوراق ستكون آخر ما كُتب بيدي، ويبدو أن من سيقرأ تلك الأوراق هو فقط من سيستطيع رؤية جُثتي، من المؤكد أن ما سأقوم بفعله لن يسكت الشيطان عليه، ولن يتركني أرحل ببساطة، لكن قليلة هي اللحظات التي أشعر بها بأن دوري لم ينتهِ، أن هُناك ما لم أنهيه بشكل صحيح في حياتي.

بعد مسيرة ساعة كاملة وبعد أن رأيت الكهف أمام عينيَ، انتفض قلبي وارتعش ذراعي حتى أن الحقيبة وَقعت على الأرض بما فيها، لكني حملتها مُجددًا وحاولت تجاهل ذلك الشعور، ثم اقتربت وأنا أردد كلمات أنت تعرفها حق المعرفة:

- "يارب نفسي أُغرقت بذنوبها... فبكيت ندمًا بالدمع كالأكداسِ... فأتيت بابك نادمًا مُتضرعًا... عسى بقُربك يهجع الوسواسِ".

كُنت أرددها وأنا على يقينٍ تام بأنها ستحميني من شره، ستحميني مما قد يفعله لي حتى يؤذيني، لا أعرف لماذا نَظرت في السماء وشعرت بأنه معي، للحظة واحدة في حياتي أشعر بهذا الشعور، أنه يَحميني وليست الكلمات.

اقتربت أكثر من الكهف وأنا أردد الأبيات بصوتٍ عال:

- "فعسى بقُربك يهجع الوسواسِ.. فعسى بقُربك يهجع الوسواسِ".

وَقفت أمام الكَهف وأنا أنظر حولي، هل من الممكن أن يكون هُنا؟ هل من الممكن أن يكون قد رآني وينتظر اللحظة المناسبة لقتلي كما قتل جدي من قبل؟! فَتحت الحقيبة وأخرجت منها أصابع الديناميت التي قد ابتعتها في وقتٍ لاحق، نَظرت حولي ولا أعلم لماذا لم يقتلني الخوف ولم ينهش عقلي وقلبي كما في السابق، شعرت بأنَ لا شيء يمكن أن أخسره، حياتي وقد ضاعت بالفعل بما حدث فيه مُنذ ثلاث سنوات.

إذا قُتلت هُنا.. على الأقل سأكون صنعت شيئًا صحيحًا للمرة الوحيدة في حياتي.

- "الله.. الله.. الله".

قُلتها وبمُجرد أن أخرجت أصابع الديناميت، نَظرت أمامي وعلى بعد أمتار كان يقف، يَنظر لي بنفس الحُلة السوداء التي رأيته فيها، يبتسم لي بلُطف.. فبادلته الابتسام. نَظرت لأصابع الديناميت ثم قمت بإشعالها وإلقائها في الكهف، بعد أن ألقيتها رَكضت بعيدًا عنه وجثوْت على الرمال، وَضعت يدي على رأسي فسمعت الصوت الأسعد في حياتي بأكملها، صوت الكهف وهو ينفجر، بدأت الصخور تطاير والرمال تنبثق من كُل حدبٍ وصوب، لكنني بالرغم من خوفي الضعيف.. ابتسمت.

لم أقضِ عليه، لم ولن أستطيع القضاء عليه، لا أحد يُمكنه ذلك، لكني فعلت ما لم يستطع أحد فعله وقُمت بحرق الكهف.. بعد دقيقة نهضت من موضعي، نَظرت إلى الكهف والنيران تأكل ما به بلا رحمة، ونَظرت بعيدًا عن الكهف فوجدته لازال واقفًا بحلته السوداء، لكن تلك المرة لم يكن يبتسم، بل كان الغضب يرتسم على وجهه بأشد تعابيره.

نَظرت له بتحدٍ كأني أخبره بأنها لم تكن النهاية، وقُمت بفتح ذراعيَ على مصراعيهما، يُمكنه القيام بأي شيء إذا أراد، يمكنه قَتلي، يُمكنه تعذيبي أو حتى أن يَقطع قدماي كما فعل مع الشيخ في الماضي، لكني كُنت أعلم أن شعوره بأنه هُزم الآن سيظل بداخله حتى ولو قَتلني ألف مرة، وقبل أن أختم كلامي.. قبل أن ألتفت وأبتعد عن الكهف كُنت أردد:

- " فعسى بقُربك يهجع الوسواسِ"....

شُكر خاص

والدي الكاتب والشاعر "يوسف خواجه": لقد كُنت الأصل في كُل شيء، علمتني وعلمت إخوتي كيف نُصبح رجالاً، تعلمت منك الكتابة ورأيت فيك طيبة القَلب.

يجب أن أذكر للقراء أن الأبيات الموجودة في الرواية من تأليف والدي العظيم.

أخي الحبيب "أحمد خواجه": لولاك لكانت انتهت الرواية بنهاية مُختلفة تمامًا، أشكرك على ما تفعله معي ووقوفك بجواري في اللحظات التي لم يقف بجواري فيها أحد.

القارئة العزيزة "تقى نوار": مُنذ روايتي (ورأيناه شيطانًا) وأنا أنتظر رأيكِ فيما أكتب بشغف، لعلكِ أنت الوحيدة التي تكتبين رأيكِ بتخوفٍ حقيقي وكأنها روايتك وتنتظرين مني الأفضل في كُل رواية.. أشكركِ شُكرًا جزيلًا..

وأخيرًا وليس آخرًا.. أشكر كُل من قرأ روايتي تلك أو الروايات السابقة، وأتمنى من كُل قلبي أن تكون الرواية نالت إعجابكم جميعًا

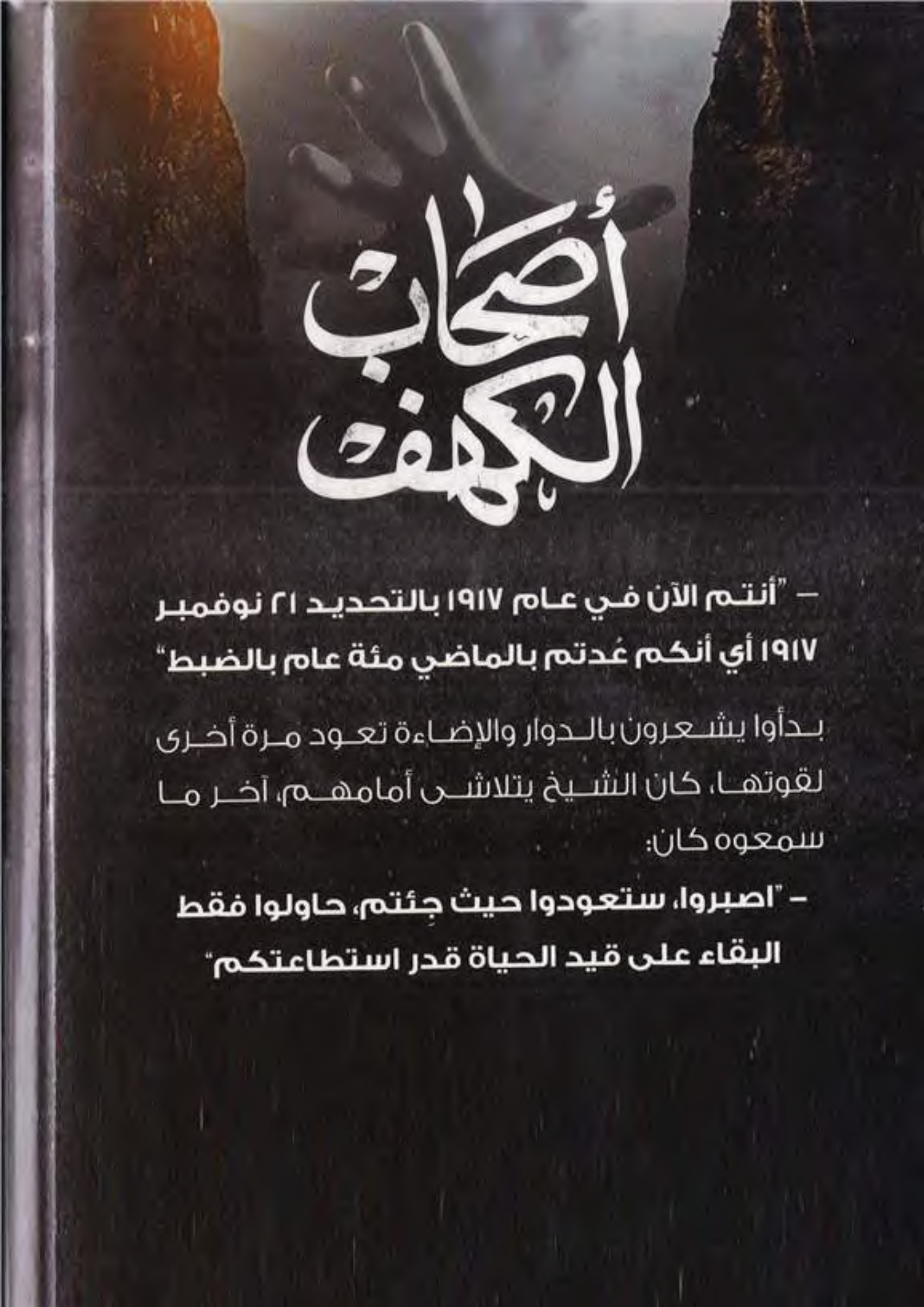

- "أنتم الآن في عام ١٩١٧ بالتحديد ٢١ نوفمبر ١٩١٧ أي أنكم عُدتم بالماضي مئة عام بالضبط"

بدأوا يشعرون بالدوار والإضاءة تعود مرة أخرى لقوتها، كان الشيخ يتلاشى أمامهم، آخر ما سمعوه كان:

- "اصبروا، ستعودوا حيث جِئتم، حاولوا فقط البقاء على قيد الحياة قدر استطاعتكم"